رائحة الحبر
عندما يُحرَق التاريخ

الإمبراطور عبد الرحمٰن الهردي

رائحة الحبر عندما يُحرق التاريخ

رواية

تأليف: عبد الرحمٰن الهردي

الإهداء

إلى من أيقظ الحبرَ من رماده، وأعاد للتاريخ أنفَه الذي بُتر منذ توّج الكذبُ نفسَه سلطانًا على الذاكرة؛

إلى كل يدٍ حملت قلمًا فأثقلته بصدقها حتى انحنى الورق أمام وزن الحقيقة؛

وإلى القارئ النبيل الذي لن يكتفي، وهو يقلّب هذه الصفحات، بأن يقرأ فحسب... بل سيجرؤ، كما جرؤ إدريس من قبله، أن يستنشق.

هذا الكتاب، بروائحه كلّها، طيّبها ومحرقها، لكم.

مقدمة الكتاب

"رائحة الحبر عندما يُحرق التاريخ" ليست رواية تُقرأ بالعين وحدها، بل عملٌ أدبي يقترح على القارئ حاسّة سادسة للتاريخ: أنّ للحدث، كما للجسد، رائحةً لا تكذب، وأنّ الكتابة الرسمية قد تُجمّل الوقائع بعطرٍ مصطنع بينما تبقى الرائحة الأصلية كامنة في المادة، تنتظر أنفًا يستحقّ أن يشمّها.

يتتبع النص رحلة إدريس بن المختار، المؤرخ الأكاديمي الذي يكتشف، بعد موت جدّه العطّار، أنّ للذاكرة الإنسانية أرشيفًا آخر غير أرشيف الورق: أرشيفًا من القوارير والروائح، تحرسه السلطة بقدر ما يتوق إلى تحريره المقموعون. بين قاعات القصر السرّية، وأزقّة فاس العتيقة، وقرية "الخميس" المنسية في جبال الأطلس، يخوض إدريس مواجهته الكبرى مع "المُنظِّف"، ذلك الكيان الذي وظيفته محو الروائح الحقيقية لتحلّ محلّها رواية واحدة رسمية، معطّرة، وكاذبة.

هي، في جوهرها، رواية عن ثمن المعرفة، وعن سؤال يطارد كل باحثٍ نزيه: كم من التاريخ الذي نظنّه حقيقة، ليس إلا عطرًا أُعيد تركيبه ليُخفي رائحة الاحتراق الأصلية؟

عن المؤلف

عبد الرحمٰن الهردي، ابن رشيدة، كاتبٌ وناقدٌ وشاعرٌ ومفكرٌ وروائيٌّ وفيلسوفٌ ومؤرخٌ وباحثٌ مغربيٌّ شاب، يصفه قرّاؤه بأنه "الإمبراطور" لا لقبًا يتوّج به نفسه عبثًا، بل لأنّ مملكته الأدبية امتدّت لتشمل كل حقلٍ خاض غماره: من السرد الروائي إلى الشعر، ومن النقد إلى التأريخ، ومن الفلسفة إلى فنّ الكتابة التحفيزية.

بدأ مسيرته باعترافٍ ذاتي جريء في "الدخان والمرآة: حياتي في عالم السجائر"، سيرة ذاتية كشف فيها عن هشاشة الإنسان خلف قناع العادة، قبل أن ينتقل إلى عالم الرواية النفسية المركّبة في "أنا... والآخر"، حيث تتقاطع مصائر أرسلان وإمپيرادور وسارة في لعبة هوياتٍ لا تُحسم.

وفي حقل الكتابة التحفيزية، قدّم للقارئ العربي منهجًا ارتكز عليه في ثلاثيته "سر النجاح هو الثبات على الهدف" (الوضوح، المرونة، الاستمرارية)، ثم عمّق تجربته في "3 دقائق للتغيير"، الكتاب الذي أعاد للرقم ثلاثة سطوته الرمزية: ثلاث دقائق، وثلاث نصائح، وثلاث خطوات، وثلاث مراحل، في بنية غريبة اعتُبرت توقيعه الخاص.

أما في عالم الملحمة الروائية الطويلة، فتبقى "المصائر الخفية" الأقرب إلى قلبه، برمزيتها في الخيوط والأقدار والأنوال، وبأبطالها إلارا وثيرون وريس وليساندرا. وفي مقابلها، خاض تجربة سردية أكثر جرأة وصراحة في رواية "نكحت عاهرة"، العمل الذي أثار جدلًا واسعًا لصراحته اللافتة في تناول تفاصيل إنسانية بسيطة قلّما يجرؤ عليها السرد العربي.

وككل باحثٍ لا يكتفي بزاوية واحدة من التاريخ، أنجز موسوعته: "مجمع الروايات، ومنبع الدلالات، في أخبار الحروب الصليبية بين أهلها والرواة، وما تفرّع عنها في الأزمان والجهات، وما استقرّ منها في العقول والذاكرات"، عملٌ بحثي ضخم في تشعبات تلك الحقبة ورواتها المتضاربين.

ولعلّ أغرب مشاريعه يبقى كتابه غير المكتمل، وربما الذي لن يكتمل أبدًا: "التعليق الأول في نقد كتاب مجمل المهمل المخمل ـــ أبوكريفا الإمبراطور الأمثل"، عملٌ يصفه هو نفسه بأنه لن يُرى كاملاً مهما حاول القارئ، في مفارقة أدبية متعمّدة تجعل من النقص جزءًا من جوهر النص.

وتُتوَّج تجربته الروائية الديستوبية برواية "عبث إمبراطور ها نول"، التي تروي صعود كيسرن من طفلٍ هزيل منبوذ في أرضٍ تؤمن بأن القوة وحدها سلطان، إلى إمبراطورٍ يهزّ العروش بصمته قبل صوته.

إلى جانب هذا كله، يحتفظ الهردي بكمٍّ من الأعمال غير المنشورة، بل والتي اختار ألا تُنشر بعد، صونًا لها في نظره، إضافة إلى قصائد ومعلّقات ولوحاتٍ فنية لا تزال حبيسة أدراجه. و"رائحة الحبر عندما يُحرق التاريخ" هي آخر ما اختار أن يُخرجه إلى النور، ليضيف إلى تجربته الأدبية إقليمًا جديدًا: إقليم الرائحة والتاريخ المنسي.

مخطط الرواية الكامل

الجزء الأول: الصندوق والرائحة المسروقة

الفصل 1: الصندوق — موت الشيخ المختار العطّار، ووصول إدريس إلى فاس، وأولى الروائح المحبوسة.

الفصل 2: قوارير الجد — إدريس يفتح القارورة الأولى ويرى بيعة فاس كما لم تُروَ.

الفصل 3: الأنف الذي لا يُصدَّق — أزمة إدريس الأكاديمية، رفض زملائه له، شكه في عقله.

الفصل 4: استدعاء القصر — رسالة من الشيخ أحمد بن ميمون النقّاح.

الفصل 5: أرشيف الروائح الإمبراطوري — الدخول الأول، وصف المكان وقوانينه.

الفصل 6: درس الشمّ الأول — الفرق بين الرائحة الأصلية والمزيفة.

الفصل 7: القوارير الفارغة — إدريس يكتشف فراغًا مريبًا في الرفوف.

الفصل 8: ليلى زهرة المرّ — اللقاء الأول في سوق العطّارين.

الفصل 9: رائحة الرصاص المطحون — الإحساس الأول بوجود «المُنظِّف».

الجزء الثاني: طريق الروائح

الفصل 10: الهروب من القصر.

الفصل 11: الطريق إلى الأطلس، وأولى محطات الاختباء.

الفصل 12: الوصول إلى مدينة الخميس المنسية.

الفصل 13: لالة ريحة — تعليم «الشمّ بالقلب».

الفصل 14: السجاد الشمّي — تاريخ القرية المروي بلا كلمات.

الفصل 15: أول محاولة فاشلة لشمّ المستقبل.

الفصل 16: ماضي ليلى — عائلة روائح الانقلابات.

الفصل 17: توتر عاطفي بين إدريس وليلى؛ رائحة المطر والبارود.

الفصل 18: ظهور «المُنظِّف» في القرية.

الفصل 19: رائحة حبر يحترق — أول شمّة واضحة لكارثة قادمة.

الفصل 20: قرار العودة إلى العاصمة.

الجزء الثالث: حريق الأرشيف

الفصل 21: العودة إلى فاس والرباط.

الفصل 22: اكتشاف احتراق جناح من الأرشيف.

الفصل 23: مواجهة أولى مع الشيخ النفّاح — خيانة أم حماية؟

الفصل 24: فلسفة «السلام العطري» للنفّاح، ورفض إدريس لها.

الفصل 25: تعقّب أثر المُنظِّف عبر مواد الأرشيف المسروقة.

الفصل 26: كشف هوية المُنظِّف الحقيقية وأصله.

الفصل 27: التسلل إلى قاعة الروائح الممنوعة.

الفصل 28: القارورة السوداء — تحذير الجد يتحقق.

الفصل 29: المواجهة الكبرى وفتح كل القوارير.

الفصل 30: انهيار المُنظِّف أمام رائحة الحقيقة الكاملة.

الجزء الرابع: ما بعد الحريق

الفصل 31: الثمن الشخصي — ما فقده إدريس وليلى.

الفصل 32: مصير الشيخ النفّاح والأرشيف الإمبراطوري.

الفصل 33: إعادة بناء الأرشيف كأرشيف شعبي لا سلطوي.

الفصل 34: عودة إلى دكان الجد في فاس.

الفصل 35: إدريس يبدأ كتابة «تاريخ المغرب الجديد» بالحبر المعطر.

الفصل 36: خاتمة مفتوحة — رائحة الخراب التي «تأجلت فقط».

الفصل الأول: الصندوق

لم تكن رائحة الموت كما توقعها إدريس بن المختار حين دخل بيت جده في درب الحنّاء بفاس القديمة. كان يظن أن الموت رائحته واحدة، ثقيلة، كريهة، تشبه ما درسه في كتب علم الأمراض التي اضطر لتصفحها مرة حين كان يكتب هامشًا عن وباء قديم. لكن رائحة موت الشيخ المختار العطّار لم تكن كذلك؛ كانت رائحة "انطفاء بطيء"، كأن قنديلاً من الزيت العتيق يخفت شيئًا فشيئًا لا لأن الزيت نفد، بل لأن الفتيل نفسه قرر أن يستريح.

وقف إدريس في عتبة الدكان المغلق منذ ثلاثة أيام، والمفتاح النحاسي القديم يثقل يده أكثر مما يثقل معدنه. كان قد أتى من الرباط على عجل، بعد أن أخبره الجيران أن الشيخ "نام ولم يستيقظ"، وهي العبارة التي يستعملها أهل الحي دائمًا حين يريدون أن يقولوا "مات" دون أن ينطقوا الكلمة، كأن الكلمة نفسها لها رائحة يتجنبونها.

فتح الباب الخشبي القديم، فصرّ المفصل صريرًا طويلاً كأنه يتنحنح قبل أن يتكلم. دخل إدريس إلى الدكان الذي قضى فيه طفولته كلها تقريبًا، بين

رفوف القوارير الزجاجية الصغيرة، وأكياس القرنفل والمسك والعنبر، ورائحة الزعفران التي كانت تلتصق بثيابه لأيام كلما زار جده. لكن الدكان اليوم كان صامتًا بشكل غريب، صمتًا له وزن، وكأن الروائح نفسها توقفت عن الحركة حدادًا على صاحبها.

جلس على الكرسي الخشبي المتهالك الذي كان جده يجلس عليه كل صباح، وراح يتأمل المكان. كان مؤرخًا بالتكوين، أستاذًا مساعدًا في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، متخصصًا في المخطوطات والوثائق الإدارية للقرن التاسع عشر. عمله كله قائم على الورق: قراءته، تصنيفه، مقارنة نسخه. لكنه، منذ صغره، كان يشعر بشيء آخر يحدث له كلما أمسك وثيقة قديمة؛ شيء لا علاقة له بالحبر المكتوب، بل برائحة الورق نفسه. كان يعرف، دون أن يخبر أحدًا، أن بعض الوثائق "رائحتها كاذبة"، وأن بعضها "صادقة" برائحة لا تُخطئ. ظن لسنوات أن هذا وهم مهني، تشوّه في الحواس بسبب طول الجلوس في قاعات الأرشيف المتربة. لم يخبر أحدًا، لا زملاءه ولا حتى جده، رغم أن جده كان الشخص الوحيد الذي بدا أنه يفهم هذا النوع من الكلام حين كان يتفوه به إدريس عرضًا وهو صغير.

قام من مكانه ومشى نحو الرف الخلفي، حيث اعتاد جده أن يخزن "أغراضه الخاصة" بعيدًا عن أعين الزبائن. دفع الستارة القماشية القديمة جانبًا، فظهر باب خشبي صغير منخفض يؤدي إلى درج حجري نازل.

لم يكن إدريس يعرف بوجود هذا الباب من قبل؛ لطالما ظن أن جدار الدكان الخلفي جدار مصمت. لكن المفتاح النحاسي في يده، حين قرّبه، بدا وكأنه "يشدّ" نحو القفل الصغير أسفل الباب، كأن للمعدن ذاكرة تعرف طريقها.

نزل الدرج الحجري ببطء، والرطوبة تزداد مع كل خطوة، ومعها رائحة غريبة بدأت تتسلل إلى أنفه: مزيج من التراب المبلل، والخشب العتيق، وشيء آخر لم يستطع تسميته، شيء يشبه رائحة الأمطار الأولى بعد صيف طويل، لكن ممزوجة بحدة معدنية خفيفة، كأنها رائحة برق قبل أن يضرب. توقف على الدرجة قبل الأخيرة، وشعر بدوار خفيف، لا من التعب، بل كأن أنفه بدأ "يرى" شيئًا لم تره عيناه بعد.

في القبو، وجد مختبرًا صغيرًا لم يكن يتخيل أن دكان عطّار متواضع يخفيه: طاولة حجرية قديمة، رفوف مليئة بقوارير زجاجية مختلفة الأحجام، بعضها فارغ في الظاهر، وبعضها مختوم بالشمع الأحمر. وفي وسط الطاولة، صندوق خشبي منقوش بزخارف نباتية دقيقة، عليه لوحة نحاسية صغيرة كُتب عليها بخط يد جده المرتجف في آخر أيامه:
"لإدريس وحده. لا تفتحه إلا حين تكون جاهعًا لتصدّق أنفك أكثر مما تصدّق عينيك."

جلس إدريس على الأرض الحجرية الباردة، ووضع الصندوق على ركبتيه. لم يفتحه فورًا. بقي يتأمل الخط، ويتذكر صوت جده وهو يقول له مرارًا، بابتسامة لا يفهم سرها آنذاك: "يا ولدي، العين تُخدع بسهولة، لكن الأنف لا يكذب عليك أبدًا، هو فقط يحتاج من يسمعه." كان يظن أنها حكمة عطّار عجوز يحب الكلام الشاعري، لا أكثر.

فتح الصندوق أخيرًا. بداخله لم يجد ذهبًا ولا وثائق كما توقع، بل عشرات القوارير الصغيرة، مرتبة بعناية، بعضها فارغ تمامًا في الظاهر، لا أثر لسائل أو مسحوق بداخلها. وفي قاع الصندوق، دفتر جلدي رقيق، كتب عليه جده بخط يده: "مذكرات أنف".

فتح الدفتر على الصفحة الأولى، فوجد سطرًا واحدًا يتصدرها: "التاريخ لا يُكتب فقط، يا إدريس، هو يُشمّ أولاً." تحته، تفصيل غريب: أسماء أحداث تاريخية، وأمام كل اسم وصف دقيق لرائحته، لا كما رواها المؤرخون، بل كما "شمّها" الشيخ المختار بنفسه، أو كما ورثها عمّن سبقه.

أمسك إدريس إحدى القوارير الفارغة في الظاهر، والتي كُتب على ورقة صغيرة ملصقة عليها: "بيعة فاس، كما وقعت لا كما كُتبت". وبيد مرتجفة، دون أن يعرف تمامًا لماذا يفعل ذلك، فتح سدادتها واقترب منها، واستنشق.

لم يكن هناك سائل يتبخر، ولا مسحوق يتطاير، ومع ذلك، اجتاحته الرائحة كموجة: غبار مبلل، وعرق خيول، وشيء حاد يشبه الحديد الساخن، وتحت كل هذا، خيط رفيع من رائحة حبر طازج لم يجفّ بعد. وفي اللحظة نفسها، رأى، لا بعينيه بل بشيء أعمق من عينيه، مشهدًا لم يقرأه في أي كتاب: رجالًا يتفاوضون في خيمة، أصواتًا خافتة، وشرطًا يُهمس به لا يُكتب، ثم يدًا تمحو سطرًا من ورقة قبل أن يجفّ حبرها.

سقطت القارورة من يده وارتطمت بالأرض الحجرية دون أن تنكسر، فتدحرجت بعيدًا. جلس إدريس، يلهث، وقلبه يخفق بعنف، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما في العتمة. لم يكن هذا وهمًا. لم يكن هذا تعبًا ولا خيالًا مفرطًا لمؤرخ أرهقه البحث.

كان شيئًا آخر تمامًا، شيئًا حقيقيًا بقدر ما هو مستحيل.

تذكّر حينها كل التعليقات التي وُجّهت إليه في مسيرته: "إدريس يتلعثم كثيرًا حين يشرح بعض الأحداث"، "إدريس لديه حدس غريب تجاه بعض الوثائق"، "كأنه يشك في كل شيء دون دليل". كان يظن دائمًا أن هذا ضعف فيه، عيب في تكوينه كباحث، نقصًا في "الموضوعية" التي يفترض أن يتحلى بها المؤرخ. الآن، وهو جالس في قبو دكان جده، أدرك أن ما كان يسميه ضعفًا، كان في الحقيقة حاسة لم يتعلم بعد كيف يستعملها.

أعاد القارورة إلى مكانها بيد لا تزال ترتجف، وأغلق الصندوق، لكنه لم يستطع أن يقفل ما فُتح بداخله. جلس طويلًا في العتمة، والرائحة الغريبة لا تزال عالقة في أنفه، وأمامه سؤال واحد يتردد: كم من قوارير هذا الصندوق، وكم من رفوف ذلك المختبر، تخفي تاريخًا لم يُروَ بعد؟

وفي الأعلى، عند مدخل الدكان، سمع طرقًا خفيفًا على الباب.

تردد الصوت مرتين، ثم توقف. صعد الدرج ببطء، وفتح الباب، فلم يجد أحدًا في الزقاق الضيق سوى ورقة صغيرة مطوية تحت الحجر عند العتبة، عليها ختم لم يعرفه: شعار صغير على شكل أنف مفتوح، وتحته عبارة واحدة: "القصر ينتظرك. لا تتأخر في تعلّم ما وَرِثته."

طوى إدريس الورقة ووضعها في جيبه، وأغلق باب الدكان خلفه، وهو يعرف، دون أن يفهم كيف، أن حياته كمؤرخ للورق قد انتهت للتو، وأن حياة أخرى، أكثر غرابة وأكثر خطرًا، بدأت لتوها برائحة قارورة صغيرة لم تكن فارغة كما ظن.

الفصل الثاني: مذكرات الأنف

دُفن الشيخ المختار العطّار في مقبرة باب الفتوح، تحت مطرٍ خفيف كأن السماء نفسها أرادت أن تُشيّعه برائحتها الخاصة: تراب مبلل، وزيت زيتون قديم يُسكب على الأيدي المصافِحة تعزيةً، ورائحة الشمع المحترق في القناديل الصغيرة التي أوقدها الجيران عند أطراف القبر. وقف إدريس بين الرجال، يستمع إلى آيات القرآن تُتلى بصوتٍ خاشع، لكن عقله كان بعيدًا، لا يزال معلّقًا في ذلك القبو الحجري، بين قوارير لا تُشبه شيئًا رآه في هذا العالم.

تقدّم منه بعد الدفن رجلٌ عجوز، جارٌ قديم لجدّه، وقبّل جبهته وهمس: "كان جدّك رجلاً من طينةٍ نادرة، يا إدريس. كان يعرف أشياء لا يعرفها العطّارون الآخرون." ثم أضاف، وعيناه تلمعان بشيء يشبه التحذير: "احذر أن تفتح كل ما تركه لك دفعة واحدة. بعض الروائح تحتاج قلبًا جاهزًا لا أنفًا فحسب." لم يفهم إدريس حينها معنى الكلام، لكنه أدرك، من نبرة الرجل، أن دائرة أوسع مما تخيل كانت تعرف بسرّ جدّه.

عاد إلى الدكان في المساء، بعد أن ودّع آخر المعزّين، وأغلق الباب الخشبي خلفه بصوت طقطقةٍ مألوف. لم يذهب مباشرة إلى القبو؛ جلس أولاً على كرسي جدّه، وسط عبق القرنفل والمسك الذي بدأ يخفت شيئًا فشيئًا كأنه يستأذن في الرحيل هو الآخر. أخرج من جيبه الورقة المطوية التي وجدها عند العتبة، وأعاد قراءتها: "القصر ينتظرك. لا تتأخر في تعلّم ما وَرِثته." لم يكن اسم مرسل، ولا عنوان، فقط ذلك الختم الصغير على هيئة أنفٍ مفتوح.

قال لنفسه إنه سيتجاهل الأمر، أنه سيعود غدًا إلى الرباط، إلى محاضراته، إلى مكتبه المرتّب في الجامعة، إلى حياته التي بناها بصبر: نشراته المحكّمة، مقالاته في المجلات الأكاديمية، سمعته كباحث "دقيق ومتحفظ" كما وصفه رئيس القسم مرة.

لكنه، وهو يهمّ بالنهوض، وجد قدميه تحملانه، دون قرار واعٍ منه، نحو الستارة القماشية، ثم نحو الدرج الحجري.

نزل هذه المرة بمصباح يدوي، لا بضوء الشمعة المتقطع الذي رافقه في المرة الأولى. أضاء المختبر كاملاً، فبدت له الرفوف أكبر مما تخيل: عشرات القوارير، بعضها معنون بخط جدّه، وبعضها بخطوط أخرى أقدم، أكثر تعرّجًا، كأنها كُتبت بيدٍ أخرى من جيلٍ سبق جدّه. جلس أمام الصندوق من جديد، وفتح دفتر "مذكرات أنف"، هذه المرة بتأنٍّ، صفحة صفحة.

كانت الصفحات الأولى مكتوبة بحبر أزرق باهت، بخط شاب لم يتجاوز العشرين على الأرجح: "اليوم شممتُ للمرة الأولى رائحة لا تخصّني. أبي يقول إنها هبة، لكنها تبدو لي، الآن، أقرب إلى لعنة رقيقة." ثم صفحات متتالية، كل واحدة تسجّل حدثًا تاريخيًا ورائحته، بأسلوبٍ يتحوّل تدريجيًا من ارتباك الشاب المتلعثم إلى ثقة الشيخ الذي عرف حرفته.

توقف إدريس عند صفحة كُتب في أعلاها: "دولة المرابطين ـــ كما شممتُها من درعٍ جلدي وجدته في سوق تارودانت." وصف تحتها رائحة الجلد المدبوغ، والصحراء ليلاً، واللبان النقي، ثم سطر أخير مكتوب بخط أثقل، كأن يد جده ارتجفت وهي تكتبه: "لكن في الكتب الرسمية، لا رائحة لهذه الدولة سوى الحديد والدم. من قرر أن يُسقط عنهم عبق الليل ولبانه؟"

أدرك إدريس، وهو يقرأ، أن جدّه لم يكن مجرد "أنف" يستقبل الروائح بسلبية، بل كان باحثًا حقيقيًا، يقارن، يشكّك، يسائل. شعر لأول مرة أن هذا الرجل الذي عاش حياته كلها بائع عطور في دكان صغير، كان في الحقيقة مؤرخًا أعمق من كل زملائه في الجامعة، مؤرخًا لم يُنشر بحثه قط، ولم يعترف به أحد.

في منتصف الدفتر تقريبًا، وجد صفحة مختلفة عن البقية، مكتوبة بخط سريع، مضطرب، وكأنها كُتبت في عجلة أو خوف: "اليوم زارني رجل من القصر. لم يقدّم نفسه، لكن رائحته كانت رائحة سلطة قديمة، مختلطة بشيء من العفن. عرض عليّ العمل في الأرشيف الإمبراطوري.
رفضتُ. قال لي: من يرفض الدخول، قد يُدفع إليه دفعًا يومًا ما، عبر حفيدٍ لا يملك رفاهية الرفض. لم أفهم حينها. أظنني فهمت الآن، وأنا أكتب هذه السطور، وقد بدأ الشيب يغزو رأسي: إنه يقصدك، يا إدريس، أنت الذي لم تولد بعد."

أغلق إدريس الدفتر بيدٍ مرتجفة، وشعر ببرودة تسري في عموده الفقري لا علاقة لها برطوبة القبو. لم يكن الأمر مصادفة إذن. لم تكن الورقة تحت الحجر عبثًا. كان هناك من يراقب هذه العائلة منذ عقود، ينتظر بصبرٍ إمبراطوري أن يرث إدريس ما رفضه جدّه.

أمسك قارورة أخرى، عليها ورقة كُتب فيها بخط جدّه الأخير، المرتجف: "معاهدة الحماية ـــ لا تفتحها إلا حين تكون مستعدًا لتكره وطنك قليلاً قبل أن تحبّه أكثر." تردد إدريس طويلاً أمامها، يده تتحرك نحوها ثم تتراجع، مرتين، ثلاث مرات، قبل أن يقرر، بعناد مفاجئ فاجأه هو نفسه، أن يعيدها إلى مكانها. "ليس الليلة"، همس لنفسه. "الليلة يكفيني ما عرفت."

أطفأ المصباح وصعد الدرج، وفي ذهنه سؤال واحد يتردد كطبلٍ بعيد: إن كان القصر يعرف بأمره منذ عقود، وإن كان جدّه قد رفض هذا العرض حماية له، فماذا كان يحمي إدريس منه بالضبط؟ وهل كان الرفض حماية حقًا، أم كان تأجيلاً فحسب لمصيرٍ لا مفرّ منه؟

في تلك الليلة، لم ينم إدريس في شقته المستأجرة في الرباط، بل بقي في غرفة جدّه العلوية، فوق الدكان، محاطًا برائحة الفراش القديم ووسادة لا تزال تحمل عبق الشيخ. وقبل أن يغلق عينيه، أخرج الورقة المطوية من جيبه ونظر إليها للمرة العاشرة تلك الليلة، وكأن التحديق فيها طويلاً قد يكشف له سرًا لم تُفصح عنه الكلمات القليلة المطبوعة عليها. غفا أخيرًا، والورقة لا تزال بين أصابعه، وفي حلمه، رأى نهرًا واسعًا يسبح فيه كائن ضخم لا شكل واضحًا له، يتنفس بدل الماء عطرًا كثيفًا يملأ الأفق، وصوتًا عميقًا يقول له، لا بلغة مفهومة بل بشيء أقرب إلى الرائحة ذاتها: "لقد انتظرتُك طويلاً أيها الأنف الأخير."

الفصل الثالث: الأنف الذي لا يُصدَّق

عاد إدريس إلى الرباط بعد أسبوع من الغياب، حاملاً في حقيبته الجلدية القديمة صندوق جدّه ملفوفًا بقطعة قماش، وفي صدره ثقلاً لم يكن يحمله من قبل حين يدخل قاعات الجامعة.

مرّ من ممر كلية الآداب المألوف، بين الأعمدة الحجرية ورائحة الطباشير والورق المصفرّ، وشعر لأول مرة أن هذه الرائحة، التي أحبّها طويلاً واعتبرها رائحة "الحقيقة الأكاديمية"، لم تعد كافية له. كانت رائحة مسطّحة، بلا عمق، كصورة مصوّرة لطعامٍ لا يُشبَع به أحد.

في اجتماع القسم ذلك الصباح، طُلب منه أن يقدّم عرضًا موجزًا عن تقدّمه في تحقيق وثيقة "بيعة فاس" التي كان يعمل عليها منذ سنتين. وقف أمام زملائه، وفتح ملف عرضه، لكن الكلمات التي كان يعرفها عن ظهر قلب، والتي كتبها هو نفسه في مسودته، بدت له فجأة كاذبة، سطحية، كأنه يقرأ نص شخص آخر لا يعرف شيئًا. توقف في منتصف جملة، وحدّق في الشاشة، وقال، دون أن يخطط لذلك: "أعتقد أن هذه الوثيقة، بصيغتها المتداولة، لا تعكس ما جرى فعلاً."

ساد صمت قصير. سأله الأستاذ المشرف، بنبرة لا تخلو من تهكّم لطيف: "وما دليلك، يا إدريس؟ وثيقة موقّعة، مؤرَّخة، ومحفوظة في الخزانة الملكية منذ قرن ونصف. هل عثرت على نسخة أخرى؟" ارتبك إدريس، وشعر بحرارة تصعد إلى وجهه. لم يكن بإمكانه أن يقول: "شممتُ رائحتها في قارورة زجاجية ورثتها عن جدّي العطّار." ابتلع ريقه وقال بصوت أضعف مما أراد: "لا... ليس دليلاً وثائقيًا بعد. مجرد... حدس بحثي."

ضحك أحد الزملاء ضحكة خفيفة مهذّبة، من ذلك النوع الذي يجرح أكثر من الشتيمة الصريحة. قال أحدهم، وهو يجمع أوراقه: "حدسك البحثي هذا يا إدريس صار يظهر كثيرًا في الآونة الأخيرة. ربما تحتاج إجازة قصيرة." لم يردّ إدريس.

جمع ملفاته وخرج من القاعة، وفي أذنيه ما زالت تتردد كلمة "إجازة" وكأنها تشخيص طبي مقنّع بلباس النصيحة الودودة.

جلس في مكتبه الصغير المطل على باحة الكلية، وأمامه أكوام الأوراق التي بناها طيلة سنوات: أبحاث محكّمة، ملاحظات هامشية، رسائل تقدير من مشرفين. كل هذا الصرح الذي بناه بصبر، شعر فجأة أنه يهتز، لا لأنه اكتشف خطأً فيه، بل لأنه اكتشف أن هناك طابقًا كاملاً من الحقيقة لم يُبنَ الصرح عليه أصلاً. أخرج من درج مكتبه دفتر جدّه "مذكرات أنف"، وقرأ من جديد السطر الذي حفظه عن ظهر قلب الآن: "التاريخ لا يُكتب فقط، يا إدريس، هو يُشمّ أولاً."

تذكّر عبارات أخرى قيلت له عبر سنوات دراسته، بدت له الآن إشارات لم يفهمها في وقتها: طالب في الماجستير وصفه بأنه "يقرأ الوثيقة كأنه يستجوبها لا يدرسها"، ومشرفه القديم الذي قال مازحًا: "أحيانًا أشعر أنك تشمّ الكذب يا إدريس، لا تراه فقط." كان يضحك حينها معهم على الملاحظة، يعتبرها مجاملة غريبة الشكل. الآن، بدت له أقرب إلى شهادة لم يفهم قيمتها.

في المساء، اتصلت به زميلته الوحيدة التي بقيت تكنّ له احترامًا رغم كل شيء، أستاذة شابة تدرّس تاريخ الأندلس، سألته بقلق حقيقي: "إدريس، هل أنت بخير؟ كلامك في الاجتماع اليوم كان... غريبًا عليك أنت بالذات." تردّد طويلاً قبل أن يجيب: "أظنني اكتشفتُ شيئًا لا أستطيع إثباته بالطرق التي تعلّمناها، لكنه حقيقي أكثر مما تعلّمناه." صمتت هي قليلاً ثم قالت: "احذر يا إدريس. الجامعة لا ترحم من يشكّك في أدواتها، حتى لو كان الشك مبررًا."

تلك الليلة، لم ينم إدريس في شقته كعادته، بل جلس على الشرفة الصغيرة، وأمامه أضواء الرباط تتلألأ بلا نظام، وسأل نفسه سؤالاً لم يجرؤ على طرحه بصراحة من قبل: هل هو مجنون؟ هل تعبه المتراكم، وطموحه المكبوت، وشعوره الدفين بأنه لا ينتمي كليًا إلى هذا العالم الأكاديمي الجاف، كل هذا تحوّل إلى هلوسة منظّمة أقنع بها نفسه؟ أخرج

القارورة التي أحضرها معه من فاس، تلك التي لم يجرؤ على فتحها، "معاهدة الحماية"، وتأملها طويلاً تحت ضوء القمر، ثم أعادها إلى حقيبته دون أن يفتحها. "ليس الليلة أيضًا"، همس. "الليلة أحتاج أن أصدّق نفسي أولاً، قبل أن أصدّق رائحة أخرى."

الفصل الرابع: استدعاء القصر

جاءت الرسالة الثانية بعد ثلاثة أيام، لا مطويّة تحت حجر هذه المرة، بل بيد رجلٍ أنيق طرق باب شقته في الرباط عند العاشرة صباحًا، يرتدي بذلة رمادية داكنة لا تحمل أي شعار، ووجهًا مهذّبًا لا يبتسم ولا يعبس. قدّم لإدريس مغلّفًا أبيض سميكًا، مختومًا بشمعٍ أحمر عليه الشعار نفسه: أنف مفتوح صغير، منقوش بدقة تُشبه دقة النقود القديمة. قال الرجل بصوت هادئ لا يقبل الجدال: "سيدي أحمد بن ميمون النفّاح يدعوك لزيارته غدًا عند الظهر. سيارة ستنتظرك أمام العمارة عند الحادية عشرة."

قبل أن يسأل إدريس عن هوية هذا "السيد النفّاح"، كان الرجل قد استدار وغادر، بخطىً هادئة موزونة، كأنه يعرف تمامًا أن سؤاله لن يجد جوابًا يستحق العناء. أغلق إدريس الباب، ونظر إلى المغلّف في يده طويلاً قبل أن يفتحه. بداخله ورقة واحدة، بخط يدٍ أنيق موزون، كُتب عليها: "لكل أنفٍ أوانه، يا حفيد المختار. لقد حان أوانك. تعال، ولا تخف: أنا من علّم جدّك ما لم يستطع أن يعلّمك إياه في الوقت المناسب."

قضى إدريس ليلته تلك بين شكٍّ وفضول يتصارعان بلا هوادة. فكّر في الاتصال بالشرطة، في تجاهل الأمر كلياً، في الهروب إلى مدينة أخرى. لكن جملة واحدة في الرسالة ظلّت تتردد في ذهنه أعمق من كل الخوف: "أنا من علّم جدّك ما لم يستطع أن يعلّمك إياه." لم يكن بإمكانه، بعد كل ما اكتشفه في القبو، أن يرفض فرصة لقاء من عرف جدّه في عالمه السرّي، من قد يملك مفاتيح لم يجدها بعد.

في الحادية عشرة تمامًا، وجد سيارة سوداء فخمة تنتظره، بلا لوحة تعريف ظاهرة، وسائق صامت لم ينبس بكلمة طيلة الطريق. عبرت السيارة أحياء الرباط الإدارية، ثم انعطفت نحو منطقة لم يكن إدريس يعرف أن لها مدخلاً من هذا الاتجاه: سور حجري قديم، وبوابة حديدية ضخمة انفتحت دون أن يلمسها أحد، كأنها كانت تعرف بقدومه.

لم تتوقف السيارة عند المدخل الرسمي للقصر الذي رآه إدريس في صور الجرائد مرات لا تُحصى، بل انعطفت نحو جناحٍ جانبي متواضع الشكل، يكاد يكون مخفيًا خلف أشجار البرتقال المعمّرة. نزل إدريس، وقاده الرجل الأنيق نفسه عبر ممرّ حجري ضيّق، تنبعث منه رائحة غريبة كلما تقدّما: مزيج من العنبر القديم، والورق المعتّق، وشيء آخر تحت كل هذا، رائحة يعرفها الآن جيدًا: رائحة الحقيقة المكتومة.

في نهاية الممر، باب خشبي ثقيل، انفتح ببطء ليكشف عن قاعة دائرية صغيرة، جدرانها مغطاة بالكامل برفوف زجاجية مليئة بالقوارير، أكبر عددًا وأقدم عهدًا من كل ما رآه إدريس في قبو جدّه. وفي وسط القاعة، على كرسيٍّ منخفض قرب نافذة صغيرة يتسلل منها ضوء خافت، جلس رجل عجوز، أعمى البصر كما بدا من عينيه البيضاوين الثابتتين، لكن رأسه رفع فور دخول إدريس، كأنه "رآه" برائحته قبل أن يسمع خطاه.

قال الرجل، بصوتٍ عميق هادئ يحمل سلطة من لم يعتد أن يُقاطَع: "أهلاً بك أخيرًا، يا إدريس بن المختار. رائحتك... تشبه رائحته كثيرًا، لكن فيها شيء آخر، شيء لم يكن في جدّك: قلق لم يهدأ بعد." نهض ببطء متكئًا على عصا خشبية منقوشة، ومدّ يده نحو الفراغ بدقة من يعرف المسافة تمامًا رغم عماه، وأضاف: "أنا أحمد بن ميمون النفّاح، ناظر أرشيف الروائح الإمبراطوري. وأنت، يا ولدي، أُتيتَ أخيرًا لتتعلّم ما وُلدتَ لأجله."

وقف إدريس صامتًا، بين رهبة المكان وثقل الكلمات، وشعر أن كل ما ظنه جنونًا شخصيًا كان في الحقيقة عتبة لعالمٍ أوسع بكثير مما تخيل، عالمٍ له قوانينه، وتاريخه، وسلطته الخاصة، وأن الخطوة التي سيخطوها الآن نحو ذلك الكرسي، لن تكون خطوة عودة أبدًا.

الفصل الخامس: أرشيف الروائح الإمبراطوري

لم يكن ما رآه إدريس في تلك القاعة الدائرية سوى الدهليز الأول من عالمٍ أوسع بكثير مما تخيّل. قاده الشيخ النفّاح، بخطىً بطيئة واثقة رغم عماه، عبر ممرٍّ حجري طويل ينحدر تدريجيًا تحت سطح القصر، وكلما تعمّقا، ازدادت الروائح كثافة وتعقيدًا، حتى شعر إدريس أن أنفه بدأ "يرى" ألوانًا لا اسم لها، طبقات فوق طبقات من عبق التاريخ المتراكم منذ قرون.

فُتح أمامهما بابٌ نحاسي ضخم، منقوش بزخارف هندسية دقيقة، ليكشف عن مشهدٍ خطف أنفاس إدريس قبل أن يخطف بصره: قاعة هائلة، أقرب إلى كاتدرائية منها إلى مكتبة، ترتفع جدرانها طوابق عدة، كل طابق مليء برفوف زجاجية تمتد إلى ما لا نهاية، وفي كل رف مئات القوارير، مرتبة بدقة عسكرية، كل واحدة تحمل بطاقة صغيرة بخط أنيق موحّد.

قال النفّاح، وصوته يتردد في القاعة الواسعة كصدى معبد: "هذا هو أرشيف الروائح الإمبراطوري، يا إدريس. ليس مكتبة كتب، كما ترى، بل ذاكرة أمة كاملة، محفوظة لا على الورق، بل في المادة التي

عاصرت الحدث. كل قارورة هنا وُلدت من غرضٍ حقيقي: سيف، عملة، قطعة قماش، حجر من جدار، عظمة. المادة تحمل الرائحة، والرائحة تحمل الحقيقة."

سار الشيخ بين الرفوف بثقة من يعرف كل قارورة باسمها، دون أن يحتاج إلى النظر، ممددًا يده بين الفينة والأخرى ليلمس زجاجة هنا، ورقة هناك، كأنه يقرأ المكان بأطراف أصابعه ورائحته معًا. توقف عند رفٍ منخفض، وأشار إلى فراغ صغير بين قارورتين. قال بنبرة تغيّرت فجأة، أثقل مما كانت: "هنا كانت تُحفظ رائحة توقيع معاهدة الحماية الأصلية. اختفت منذ سنوات. ولم نجد لها أثرًا."

سأله إدريس، وقد استعاد بعض جرأته: "من يستطيع أن يسرق من هذا المكان؟ أليس محروسًا؟" ابتسم النفّاح ابتسامة باهتة، أقرب إلى تجهّم مُقنَّع. "يُحرَس من الخارج، نعم. لكن من يستطيع أن يحرس رائحة من كائن لا رائحة له أصلاً؟" لم يفهم إدريس المقصود حينها، لكن كلمة "كائن لا رائحة له" ستبقى عالقة في ذهنه طويلاً بعد ذلك اليوم.

جلسا أخيرًا في مكتب صغير على أطراف القاعة الكبرى، حيث قدّم خادم صامت الشاي الأخضر بالنعناع في أكواب زجاجية، رائحته البسيطة المألوفة أشبه بملاذ وسط كل تلك الروائح الثقيلة الغريبة. قال النفّاح، وهو يحتسي رشفته الأولى ببطء: "جدّك كان أفضل أنفٍ عرفته

هذه المملكة منذ جيلين. لكنه رفض العمل هنا، لأنه رأى ما لم يرغب في رؤيته: أن بعض الحقيقة تُحفظ هنا لا لتُروى، بل لتُدفن بعناية أكبر مما تُدفن به في الخارج."

توقف قليلاً، ثم أضاف بصوت أخفض: "أنا لا أخفي عليك هذا، يا إدريس، لأنني أحترمك، بل لأنك ستكتشفه بنفسك عاجلاً أم آجلاً، وأفضّل أن تسمعه مني أولاً. هذا الأرشيف يخدم غايتين متعارضتين: حفظ الحقيقة، وحماية استقرار المملكة. وأحيانًا، الغايتان لا تجتمعان."

شعر إدريس بثقل تلك الكلمات يستقر في صدره كحجر. لم يكن هذا ما توقعه من "معلّم" سيرشده إلى عالم أجداده. كان يتوقع دهشة، سحرًا، ربما فخرًا. لم يتوقع أن يُخبَر، منذ اللقاء الأول، أن المعرفة التي سيرثها ملغومة بمساومات لم يوافق عليها بعد.

الفصل السادس: درس الشمّ الأول

في الأسابيع التالية، بدأ إدريس يتردد على الجناح السري مرتين أسبوعيًا، بين محاضراته في الجامعة التي صار يؤدّيها بجسدٍ حاضر وذهنٍ غائب، وبين دروسه السرّية عند الشيخ النفّاح. لم يخبر أحدًا، لا زملاءه ولا حتى تلك الزميلة التي أبدت قلقًا صادقًا عليه؛ شعر أن هذا العالم الجديد يحتاج صمتًا كالذي احتاجه جدّه طوال حياته.

في الدرس الأول الحقيقي، جلس النفّاح أمامه وبينهما طاولة عليها ثلاث قوارير متطابقة الشكل تمامًا، بلا بطاقات تعريف. قال: "قبل أن تتعلّم قراءة التاريخ بأنفك، يجب أن تتعلّم أول قانون فيه: الرائحة الأصلية لا تُقلَّد، لكنها تُزيَّف بطرقٍ ماكرة. افتح القارورة الأولى، وأخبرني ماذا تشمّ."

فتح إدريس السدادة الأولى، واستنشق بحذر تعلّمه في الأسابيع الماضية. جاءته رائحة ياسمين ناعمة، حلوة، منتظمة كأنها صُنعت في مختبر عطور حديث. قال: "ياسمين... لكنه غريب، منتظم أكثر من اللازم، وكأنه لا يحمل أي شوائب طبيعية." ابتسم النفّاح للمرة الأولى ابتسامة

رضا حقيقية. "هذه هي أول علامة: الرائحة الحقيقية دائمًا فيها 'شائبة'، خيط دخيل، عيب صغير يشبه بصمة الإصبع. أما المزيّف فمثالي أكثر من اللازم، لأن من صنعه أراد أن يُقنعك لا أن يصدُقك."

فتح القارورة الثانية، فجاءته رائحة مختلفة تمامًا: مزيج من الغبار والمطر والعرق، وتحتها خيط معدني خفيف. قال النفّاح: "هذه رائحة توقيع اتفاقية حدودية قديمة، حقيقية بالكامل. لاحظ التعقيد، لاحظ أنها لا تُريحك، بل تُربكك قليلاً، لأن الحقيقة نادرًا ما تكون مريحة." ثم فتح إدريس الثالثة، فوجد مزيجًا مربكًا: نصفه يشبه الرائحة الحقيقية، ونصفه الآخر يحمل تلك النعومة المصطنعة من القارورة الأولى.

سأل إدريس، محتارًا: "هذه ماذا؟" أجاب النفّاح بجدية مفاجئة: "هذه الأخطر من الجميع. هذه رائحة حدثٍ حقيقي، أُعيدت صياغته جزئيًا. حدث وقع فعلاً، لكن جزءًا منه، السطر الأخير عادة، استُبدل أو حُذف. هذا ما يفعله معظم من يزوّرون التاريخ: لا يخترعون كذبة كاملة، بل يبتُرون الحقيقة من طرفها الأخير، حيث يكمن الثمن الحقيقي للحدث."

استمر الدرس ساعات، بين قوارير متعددة، حتى شعر إدريس بصداع خفيف يشبه إرهاق العين بعد قراءة طويلة، لكنه إرهاق الأنف هذه المرة. قال له النفّاح، وهو يلاحظ تعبه: "هذا طبيعي في البداية. الأنف عضلة كأي عضلة أخرى، يتعب حين تدرّبه لأول مرة على حمل أوزان لم

يحملها قط." ثم أضاف، بنبرة أقرب إلى التحذير الأبوي: "لكن إياك أن تفرط في الشمّ قبل أن يشتد أنفك. بعض الروائح، خصوصًا القديمة منها، قد تصيب صاحبها بما يشبه الحمّى، أو أسوأ."

في نهاية ذلك اليوم، وهو يودّع الشيخ عند باب الجناح، سأله إدريس سؤالاً كان يختمر في صدره منذ الدرس الأول: "لماذا تعلّمني كل هذا؟ ما الذي تريده مني بالضبط؟" توقف النفّاح طويلاً قبل أن يجيب، ووجهه الأعمى موجّه نحو إدريس بدقة من يرى بعينين خفيتين: "أريد منك أن تصبح الأنف الذي لم أستطع أن أكونه بالكامل: أنفًا يخدم الحقيقة أولاً، لا السلطان.

لكنني، في الوقت نفسه، لا أستطيع أن أعدك بأنني سأسمح لك بذلك دائمًا. هذا هو التناقض الذي أعيش فيه منذ خمسين عامًا، يا ولدي، وسأتركك تكتشفه بنفسك، درسًا درسًا."

الفصل السابع: القوارير الفارغة

مرّت الأسابيع، وصار إدريس يُسمح له بالتجوّل في أرجاء أرشيف الروائح دون مرافقة دائمة من الشيخ النفّاح، بعد أن أثبت في الدروس المتتالية أن أنفه ليس هبة خام فحسب، بل موهبة قابلة للصقل السريع. كان يقضي ساعاته الحرة بين الرفوف، يقرأ بطاقات القوارير، يحفظ ترتيب القاعات، ويحاول أن يبني في ذهنه خريطة لهذا العالم الذي ابتلعه فجأة.

في أحد الأيام، وهو يتفحّص قسم "الفتوحات المبكرة" في الطابق الثالث، لاحظ شيئًا أزعجه: قارورة تحمل بطاقة "الفتح الإسلامي — الموجة الأولى" كانت فارغة تمامًا، لا رائحة فيها البتة، لا حتى ذلك الفراغ المشحون الذي شعر به حين فتح قوارير جده الفارغة ظاهريًا في القبو. هذا فراغ من نوع آخر: فراغ ميت، بلا نبض.

تفحّص القوارير المجاورة فوجد ثلاث أخرى بالحالة نفسها، متفرقة بين رفوف مختلفة، بلا نمط واضح يربطها، سوى أن جميعها تتعلق بأحداث

كبرى، لا هامشية. سجّل أرقامها في دفتر صغير كان قد بدأ يحمله معه، على عادة جدّه، ثم ذهب يبحث عن الشيخ النفّاح ليخبره.

وجده في مكتبه المعتاد، يستمع إلى تسجيل صوتي قديم بجهاز نحاسي غريب الشكل. أوقف التسجيل حين دخل إدريس، واستمع إليه بانتباه وهو يصف القوارير الفارغة. ساد صمت طويل قبل أن يجيب النفّاح، بنبرة حاول أن يجعلها هادئة لكنها لم تُخفِ توترًا خفيفًا: "أعرف. لسنا الوحيدين اللذين لاحظا هذا."

سأله إدريس: "من فعل هذا؟ وكيف؟ ألا يُفترض أن هذا المكان محروس بإحكام؟" أجاب النفّاح، وهو ينهض ببطء متكئًا على عصاه: "محروس من كل من له جسد يخترق الجدران أو يفتح الأقفال. لكن من يسرق هذه الروائح لا يحتاج أن يدخل بجسد.

يكفيه أن... يمحو." توقف، ثم أضاف بصوت أخفض: "نسمّيه هنا، فيما بيننا، 'المُنظِّف'. لا أحد رآه بوضوح. لكن كل من اقترب من أثره، شعر بالشيء نفسه: غياب حاد، أشبه برائحة العدم ذاته."

طلب إدريس أن يرى قائمة كاملة بالقوارير الفارغة عبر السنوات، فتردد النفّاح طويلاً قبل أن يوافق، بشرط أن يبقى الأمر بينهما. جلسا معًا حتى ساعة متأخرة من الليل، يقارنان القائمة بسجلات الأرشيف القديمة،

ووجدا نمطًا مقلقًا: كل الأحداث المسروقة روائحها كانت أحداثًا لو عُرفت تفاصيلها كاملة، لقلبت رواية رسمية مستقرة، أو كشفت خيانة لم تُعاقَب، أو فضحت اتفاقًا سريًا لا يزال أثره ممتدًا حتى اليوم.

قال إدريس، بصوت يرتجف من غضبٍ لم يعرف من أين أتى بهذه الحدّة المفاجئة: "إذن هذا ليس عبثًا. هذا انتقاء مقصود لمحو ما يزعج أحدًا ما، حتى الآن." أومأ النفّاح برأسه ببطء، ووجهه يحمل تعبًا يشبه تعب من عاش يعرف حقيقة لا يستطيع مواجهتها كاملة. "هذا بالضبط ما يخيفني منذ سنوات، يا ولدي.

وأخشى أنك، بحماسك الجديد هذا، ستكون أول من يجرؤ على السؤال: من المستفيد؟"

الفصل الثامن: لقاء هناء زهرة المرّ

عاد إدريس إلى فاس في عطلة نهاية الأسبوع، بحجة ترتيب أغراض جدّه المتبقية في الدكان، لكن الحقيقة أنه احتاج أن يبتعد عن ثقل القصر ليتنفس، ولو بمعنى مجازي، هواء أخف. سار في سوق العطّارين كعادته منذ الطفولة، بين أكياس البهارات وقوارير المسك، حتى توقف أمام دكان لم يعرفه من قبل، صغير، يحمل لافتة بخط اليد: "زهرة المرّ للعطور النادرة".

دفعه فضول لم يفهمه إلى الدخول. كانت الدكان مرتبة بعناية غير معتادة، وعلى الرفوف قوارير تحمل تسميات غريبة لم يرها في أي متجر آخر: "رائحة الإضراب العام 1965"، "عرَق يوم المحاكمة"، "دخان الاحتجاج الأخير". وقفت خلف المنضدة امرأة في أواخر العشرينيات، شعرها مربوط بإحكام، وعيناها تحملان حدّة يقظة لم يعتد رؤيتها في وجوه بائعات العطور.

قالت دون مقدمات، وهي تنظر إليه بتفحّص صريح: "أنت حفيد المختار العطّار. رائحتك تشبه رائحته، مع فارق: رائحته كانت رائحة رجل صالح لنفسه فقط. رائحتك فيها شيء آخر، كأنك بدأت تشمّ ما لا

يعجبك." ارتبك إدريس من دقة الملاحظة، وسأل: "من أنت؟ وكيف تعرفين جدّي؟" ابتسمت ابتسامة نصف ساخرة: "هناء زهرة المرّ. عائلتي كانت تعمل في 'روائح العامة'، ما لا يريد الأرشيف الإمبراطوري أن يحفظه: روائح الإضرابات، والانقلابات الفاشلة، وصرخات من لم يُروَ عنهم شيء."

جلسا في زاوية الدكان الضيقة، وأخبرته أن عائلتها تعرضت للمطاردة قبل عقدين، حين حاول جدّها أن يقدّم "أدلة شمّية" في محاكمة سياسية لم تكتمل، فاختفى الملف كله بين ليلة وضحاها، واختفت معه سمعة العائلة داخل دوائر الأنوف الرسمية. قالت بمرارة واضحة: "نحن، يا إدريس، لسنا كأرشيفكم الإمبراطوري الأنيق. نحن نجمع الروائح من الشارع، من الأزقّة، من ملابس من ماتوا في صمت. لا أحد يمنحنا مكتبًا في القصر."

سألها إدريس، بفضول ممزوج بحذر: "ولماذا تخبرينني كل هذا؟ لا تعرفينني." نظرت إليه طويلاً قبل أن تجيب: "لأن رائحتك، رغم كل شيء، لم تتعفّن بعد بعطر القصر. وأنا أراهن، بغباء ربما، أن هذا لن يتغيّر بسرعة." ثم أضافت، بنبرة أخف قليلاً، يشوبها ما يشبه التحدي المرح: "أو ربما فقط لأنني أردت أن أرى وجهك حين تكتشف أن هناك من يشمّ التاريخ خارج قصور السلاطين أيضًا."

خرج إدريس من الدكان في ذلك المساء، ورائحة المكان لا تزال عالقة في ذاكرته: خليط من الحبر الساخن وشيء معدني بارد يشبه البارود، ممزوجًا بشيء آخر لم يستطع تسميته، شيء أقرب إلى العناد. شعر، للمرة الأولى منذ بدأت هذه الرحلة الغريبة، أنه ليس وحيدًا في مواجهة سؤاله الكبير: من يقرر أي رائحة تُحفظ، وأيّها تُمحى؟

الفصل التاسع: رائحة الرصاص المطحون

عاد إدريس إلى الأرشيف الإمبراطوري بعد لقائه بهناء وهو يحمل يقظة جديدة، أقرب إلى حذر المحقق منها إلى دهشة المتعلّم. طلب من الشيخ النفّاح، بإصرار لم يعتده الشيخ منه من قبل، أن يسمح له بزيارة الطابق الذي اختفت منه معظم القوارير الفارغة، وحيدًا هذه المرة، ليشمّ المكان بنفسه دون توجيه.

وافق النفّاح على مضض، بعد تردد طويل، وحذّره: "لا تلمس شيئًا لا تعرف اسمه. وإن شممتَ رائحة لا تشبه أي شيء تعرفه، اخرج فورًا، ولا تحاول أن تفهمها في مكانها." أومأ إدريس، وإن كان في داخله يعرف أنه، إن شمّ شيئًا كهذا، لن يقاوم رغبته في فهمه على الفور.

في الطابق الثالث، بين الرفوف الصامتة، شعر إدريس بتغيّر طفيف في الهواء نفسه، شيء لا يستطيع وصفه إلا بأنه "كثافة سالبة"، كأن الفراغ نفسه اكتسب وزنًا. توقف أمام أحد الرفوف الذي لاحظ فيه أكبر عدد من القوارير الفارغة، وأغمض عينيه، وحاول أن يفعل ما علّمه إياه النفّاح:

أن يشمّ لا بأنفه فقط، بل "بقلبه الشامّ" كما وصفته لالة ريحة في حكايات جدّه القديمة التي لم يفهمها بعد.

جاءته الرائحة فجأة، كصفعة: معدنية حادة، باردة، كرصاص طُحن حتى صار غبارًا ناعمًا يتطاير في الهواء دون أن يستقر.

لم تكن رائحة بارود، ولا رائحة معركة؛ كانت أبرد من ذلك، أكثر حسابًا، أقرب إلى رائحة قرار بارد اتُّخذ بعناية شديدة.

وتحتها، خيط رفيع لا يكاد يُلحظ من رائحة أخرى: عدم صرف، غياب مطلق، كأن شيئًا كان هنا يومًا، ثم قرر الوجود نفسه أن يتراجع.

فتح عينيه وهو يلهث، وشعر بدوار حاد جعله يستند إلى الرف القريب. في تلك اللحظة بالذات، سمع صوت خطى بعيدة في الممر المجاور، خفيفة جدًا، منتظمة، بلا إيقاع بشري مألوف، كأن من يمشي هناك لا يحتاج أن "يمشي" بالمعنى الذي يعرفه إدريس، بل يتحرك فحسب. اتجه نحو الصوت بحذر، لكن حين وصل إلى الممر، لم يجد أحدًا، فقط رائحة الرصاص المطحون تلك، أعمق مما كانت، كأن ما مرّ من هنا للتو كان يعرف أن إدريس يشمّه، وتركها عمدًا خلفه، كتوقيع، أو كتحذير.

عاد إلى مكتب النفّاح شاحبًا، يرتجف قليلاً، وروى ما حدث.

سمع الشيخ الوصف كاملاً، ثم جلس صامتًا طويلاً قبل أن يقول، بصوت فقد فجأة كل ثقته المعتادة: "لقد شممتَه إذن. في زيارتك الأولى وحدك. هذا... أسرع مما توقعت، وأخطر مما أردت لك." سأله إدريس: "هل هذا هو؟ المُنظِّف؟" أومأ النقّاح برأسه ببطء ثقيل. "نعم. والآن، وقد شممكَ هو الآخر، لن يتركك تنسى رائحته أبدًا. من الآن فصاعدًا، يا إدريس، أنت لست مجرد متدرب في هذا الأرشيف. أنت هدف."

خاتمة الجزء الأول

هذا الصندوقُ فُتح فما عاد له انطواء، وهذه الرائحةُ سُمعت فما عاد لها انطفاء؛ فمن رمادِ الغيابِ وُلد اللقاء، ومن صمتِ الأجداد نبتَ النداء.

شمّ إدريسُ في القوارير المُغلقة صدى الوفاء، وفي الأرشيف المهجورِ دفينَ الجفاء؛ فأدرك أنّ التاريخَ المكتوبَ نصفُه افتراء، وأنّ نصفَه الآخر ما زال يرزح تحتَ الأنقاض في انتظار الفناء أو البقاء.

شمّ من الرصاص المطحونِ رائحةَ عدمٍ يتوعّد باعتداء، فعلم أن للمحو يدًا لا تُرى، لكنّها في كل لحظة، كالظلّ، حاضرةٌ وراء كل خطاء.

ولقيَ في دروب فاسَ فتاةً حملت اسم المرارة والزهرِ سواء، فوجد في رائحتها الحادّة سكنًا لا يشبه السكينةَ، بل يشبه الرجاء؛ فتحالفا على درءِ الخطرِ ولو كلّفهما ذلك عناء، وتعاهدا ألا يُطفئا هذا اللقاء.

فهذا ختامُ الجزء الأول، وقد صار إدريسُ هدفًا معلَنًا لكائنٍ من عدمٍ لا يعرفُ إلا الإفناء، فحمل في صدره وعدًا لا يعرف التراجعَ ولا الانكفاء: أن يُشمّ الحقُّ كاملاً، ولو كان طريقُه إلى القصر أو الفناء.

الجزء الثاني: طريق الروائح

مقدمة الجزء الثاني

إذا كان الجزءُ الأول قد كشف الأسرار، فإنّ الجزء الثاني يفتح أمام القارئ الأخطار؛ طريقٌ من فاسَ إلى سفوح الأطلس الكبار، لا تُقاس أميالُه بالخُطى، بل بما يُقطَع فيه من حُجُبٍ وأستار.

ها هو إدريسُ يخرج من دهاليز القصر هاربًا لا مُنكسِرَ الاقتدار، مطرودًا لا مهزومًا، يحمل صندوقَ جدّه وميراثَ الأسرار؛ ومعه هناءُ، رفيقةُ الدرب وشريكةُ الأخطار، تُسايره بعزمٍ لا يعرف الفتور ولا الانكسار.

سيصعدان جبالاً تُنحَت صخورُها بأنياب الرياح الحِرار، ويهبطان قرية لا تنطق إلا بلغة العطر، لغةً أعرقَ من كل الحوار؛ وهناك، عند لالة

ريحةَ، سيتعلّم إدريسُ فنّ استشراف ما لم يقع، بصبرٍ يُعيي الاصطبار.

وفي هذا الطريق، سيدرك أنّ شمّ المستقبل بلاءٌ يوازي كل ابتكار، وأنّ من يحمل نذيرَ الكارثة قبل وقوعها، يهرم بها قبل أن يهرم الليل والنهار.

فتابعوا، أيها القارئ، هذا الدرب المحفوف بالحبّ والخطر، بالضحك العابر والرهبة التي لا تُبارِح الديار؛ ففي طريق الروائح هذا، تُنسَج مصائر الأبطال، سطرًا فسطرًا، وقرارًا فقرار.

الفصل العاشر: الهروب من القصر

لم يمهله النفّاح وقتًا طويلاً للتفكير. في صباح اليوم التالي لحادثة الرصاص المطحون، استدعاه إلى مكتبه بنفسه، لا برسالة مطويّة هذه المرة، بل بطرقٍ حادّ على باب شقته عند الفجر. فتح إدريس الباب فوجد النفّاح واقفًا، متكئًا على عصاه، متعبًا كأنه لم ينم الليلة كلها، وقال بلا مقدمات: "علينا أن نتحدث، الآن، قبل أن يستفيق القصر من نومه."

جلسا في مطبخ الشقة الصغير، والشيخ يرتشف كوب ماء قدّمه إدريس بيدين ترتجفان قليلاً من التوتر لا من البرد. قال النفّاح: "بعد ما حدث بالأمس، بلغ خبرك مسامع من هم أعلى مني في هذا القصر. ليس الملك، بل من حوله، من يديرون شؤون 'الاستقرار' كما يسمّونه. يريدون أن يُغلَق ملفّك، يا إدريس، بطريقة أو بأخرى."

سأله إدريس، وقلبه يخفق بعنف: "ماذا تعني بـ'يُغلَق'؟" لم يجب النفّاح مباشرة، بل أخرج من جيب عباءته ورقة صغيرة مطوية، شبيهة بتلك التي وصلت إدريس أول مرة، لكنها هذه المرة تحمل ختمًا مختلفًا: أنف

مغلق، لا مفتوح. قال: "هذا الختم يعني أمرًا واحدًا في تقاليد هذا الأرشيف القديمة: أن يُصبح صاحب الملف نفسه قارورة، تُغلَق ولا تُفتَح مرة أخرى."

شحب وجه إدريس، وأدرك أن الأمر يتجاوز التهديد المجرد. قال النفّاح، بنبرة أسرع من عادته: "لديك ساعات قليلة قبل أن يصل من يُنفّذ هذا القرار. لا تعُد إلى الجامعة، ولا إلى شقتك بعد اليوم، ولا حتى إلى دكان جدّك في فاس، فسيكون أول مكان يبحثون فيه. اذهب إلى من تثق به وحده، ولا تخبرني أنت أين، فأنا نفسي لا أضمن أنني سأصمت إن سُئلت تحت الضغط المناسب."

سأله إدريس، بصوت يخونه الغضب المكتوم: "ولماذا تساعدني إذن، إن كنت لا تضمن صمتك؟" نظر النفّاح إليه طويلاً بعينيه العمياوين، وقال بصدقٍ نادر: "لأنني، منذ خمسين عامًا، وقفت في موقفك هذا بالضبط، وصمتُّ، وبقيت أسيرًا لهذا القصر منذ ذلك اليوم. لا أريد أن يتكرر معك ما فعلته أنا بنفسي. اذهب، يا إدريس. اذهب الآن، وخذ معك كل ما تحتاجه من قوارير جدّك."

خرج إدريس من شقته بعد نصف ساعة، حقيبة على ظهره تحمل صندوق جدّه ملفوفًا بعناية، وهاتفه الذي كتب عليه رسالة واحدة إلى هناء: "أحتاج مخرجًا من المدينة، الآن. لا وقت للتفصيل." لم يمرّ

دقيقتان حتى جاءه الرد: "انتظرني عند محطة القطار القديمة، لا الجديدة. سأحضر بسيارة قديمة لا تجذب الأنظار. ولا تشمّ أي شيء غريب في الطريق، فقط اركض."

الفصل الحادي عشر: الطريق إلى الأطلس

جاءت هناء في سيارة "رونو" قديمة صدئة الأطراف، لكنها تعمل بصمتٍ لافت يشهد على عناية خفية بمحركها. لم تسأله عن التفاصيل حين ركب بجانبها، بل انطلقت مباشرة، وقالت وهي تنظر إلى المرايا الجانبية بحذر متكرر: "سنغيّر السيارة مرتين قبل أن نبتعد عن فاس بما يكفي. هذه ليست نزهة، إدريس."

سارا أولاً نحو مدينة صغيرة على أطراف الأطلس المتوسط، حيث انتظرهما شاب صامت أعاره سيارة أخرى دون أن يسأل سؤالاً واحدًا، سلوك أدرك إدريس أنه جزء من شبكة "الأنوف" التي تحدثت عنها هناء من قبل، شبكة صامتة تتحرك بلغة الروائح والمعارف القديمة أكثر من الكلمات. سألها في الطريق: "كم عدد أمثالك، يا هناء؟ كم من الناس يعرفون بهذا العالم كله؟" أجابت وهي تركّز على الطريق المتعرج: "أكثر مما تتخيل، وأقل مما تحتاجه المملكة لتُغيَّر."

كلما ارتفعت السيارة في الطرقات الجبلية، تغيّرت الروائح من حوله: غبار المدينة تراجع لصالح رائحة الصنوبر والأرز البرّي، وبرودة

الهواء بدأت تحمل نقاءً لم يعرفه إدريس في الرباط أو فاس. قالت هناء، وهي تلاحظ صمته المتأمل: "الجبل لا يكذب، إدريس. لا سلطة تستطيع أن تُزيّف رائحة الصنوبر أو تُرشيها لتصمت."

توقفا عند مساء اليوم الأول في نُزل صغير معزول، يملكه رجل عجوز عرف هناء منذ صغرها. أثناء العشاء البسيط، سألها إدريس عن وجهتهما النهائية، فأجابت: "قرية اسمها 'الخميس'، لن تجدها على أي خريطة رسمية. سكانها جميعًا من 'الأنوف' الهاربين على مدى أجيال، تخلّوا عن الكلام تقريبًا، واستعاضوا عنه بلغة الروائح وحدها. هناك من يستطيع أن يعلّمك ما لم يستطع النفّاح أن يعلّمك إياه: كيف تشمّ ما لم يقع بعد."

في تلك الليلة، وهو مستلقٍ في غرفته الصغيرة الباردة، أخرج إدريس دفتر جدّه من الصندوق، وقرأ سطرًا لم يلحظه من قبل، مكتوبًا في الحاشية بخطٍّ صغير: "من يذهب إلى الخميس، لن يعود كما ذهب. القرية لا تعلّم فحسب، بل تُغيّر من يدخلها. فكّر جيدًا، يا حفيدي، قبل أن تطلب هذا الدرس." أغلق الدفتر، ونظر إلى السقف الخشبي المتشقّق، وهمس لنفسه: "لم يعد لديّ رفاهية أن أفكّر جيدًا، يا جدّي. لم يعد لديّ إلا أن أتقدّم."

الفصل الثاني عشر: الوصول إلى مدينة الخميس المنسية

بعد يومين من الطرقات الوعرة والمسالك التي لا تحمل اسمًا على أي خريطة، تركا السيارة عند سفح واد ضيق، وأكملا سيرًا على الأقدام عبر ممرّ جبلي محاط بأشجار الأرز العتيقة. قالت هناء، وهي تتقدّمه بخطىً واثقة تنمّ عن معرفة سابقة بالمكان: "من هنا فصاعدًا، لا تتحدث بصوت مرتفع. القرية تسمع بأنفها قبل أذنيها، وهي لا تحبّ الضجيج غير المرغوب فيه."

ظهرت "الخميس" أمامهما فجأة، عند انحناء الممر الأخير، كأنها كانت مخفية عن قصد بين ظلال الجبل: بيوت طينية منخفضة، بلا أضواء كهربائية ظاهرة، وأزهار وأعشاب معلّقة على كل باب تقريبًا، تنبعث منها روائح متداخلة معقّدة، كأن القرية كلها حديقة عطور مفتوحة على الهواء.

استقبلهما عند المدخل رجل صامت، تفحّص إدريس بأنفه أكثر من عينيه، ثم أومأ برأسه لهناء بإشارة اعتراف وثقة، وقادهما عبر أزقة

ضيقة نحو بيت أكبر من البقية قليلاً، يقف عند بابه سجّاد معلّق بألوان وأنماط غريبة، ليس مطرزًا بخيوط عادية، بل، كما سيعرف إدريس بعد قليل، منسوجًا بمواد معطّرة تُروي بها القرية تاريخها بلا كلمات.

في الداخل، جلست امرأة عجوز شديدة النحول، عيناها مغمضتان دائمًا وإن لم تكن عمياء، تحيط بها أوانٍ فخارية صغيرة ونباتات مجففة معلّقة من السقف. رفعت رأسها فور دخولهما، واستنشقت الهواء ببطء طويل، ثم قالت بصوتٍ يشبه حفيف الأوراق: "حفيد المختار، وابنة زهرة المرّ، كلاكما جاء أخيرًا محمّلاً برائحة قرارٍ لا رجعة فيه."

قدّمتها هناء بصوت خافت مليء بالاحترام: "هذه لالة ريحة، يا إدريس. الأقدم بيننا جميعًا، والأكثر معرفة بلغة الرائحة التي لا تُكتب." نظرت لالة ريحة نحو إدريس، وإن كانت عيناها مغمضتين، وقالت: "جئت لتتعلّم شمّ ما لم يقع بعد، أليس كذلك؟ هذا درسٌ ثقيل، يا ولدي، فالمستقبل، على عكس الماضي، لا يرحم من يعرفه قبل أن يكون جاهزًا لثقله."

أجابها إدريس، بصوت لم يستطع أن يخفي فيه رجفة صادقة: "لم يعد أمامي خيار آخر، يا لالة ريحة. من يطاردني لن ينتظر حتى أكون جاهزًا." ابتسمت العجوز ابتسامة غريبة، بين الرثاء والفخر، وقالت: "قلّة من يأتون إلينا وهم يعرفون ثقل ما يطلبون. هذا وحده يبشّر بأنك قد

تنجح فيما فشل غيرك. تعال، غدًا نبدأ، والليلة، فقط، استرح، واسمح لأنفك أن ينسى قليلاً رائحة الخوف التي تحملها منذ فاس."

الفصل الثالث عشر: لالة ريحة ـــ درس الشمّ بالقلب

بدأ الدرس عند الفجر، حين لا تزال روائح الليل عالقة بالهواء قبل أن تمحوها حرارة الشمس الأولى. أجلست لالة ريحة إدريس على حصيرة من القش أمام بيتها، ووضعت بينهما وعاءً فخاريًا صغيرًا خاليًا من أي رائحة ظاهرة. قالت: "أنفك، يا ولد المدينة، تعلّم أن يشمّ ما هو موجود. اليوم، سأعلّمك أن تشمّ ما ليس موجودًا بعد."

سألها إدريس، بحيرة من لم يفهم كيف يُشمّ العدم: "كيف يكون للمستقبل رائحة، إن كان لم يقع؟" أجابت وعيناها مغمضتان كعادتهما: "المستقبل لا رائحة له بذاته، لكن الحاضر، حين يتهيأ لحدثٍ كبير، يبدأ يتغيّر تغيّرًا خفيفًا، كما تتغيّر رائحة الهواء قبل العاصفة. أنت لا تشمّ العاصفة نفسها، بل تشمّ استعداد الهواء لها. هذا ما نسمّيه هنا 'الرائحة العكسية'."

طلبت منه أن يغمض عينيه، لا ليشمّ بأنفه هذه المرة، بل، كما قالت، "بصدره كله". شعر إدريس بغرابة الطلب، لكنه أطاع، وحاول أن يفرغ ذهنه من كل شيء: من هناء، ومن النفّاح، ومن رائحة الرصاص

المطحون التي لا تزال تطارده. قالت لالة ريحة بصوت هادئ: "لا تبحث عن رائحة معيّنة. فقط... اسمح لصدرك أن يثقل، إن كان هناك شيء يستحق أن يُشمّ."

مرّت دقائق طويلة لم يشمّ فيها إدريس شيئًا سوى هواء الجبل النقي، وبدأ يشعر بخيبة، وبشيء من السخرية من نفسه لجلوسه هكذا كطفل يحاول أن "يشمّ بصدره". لكن فجأة، دون مقدمات، شعر بثقل غريب يستقر في أعلى بطنه، ثقل لا علاقة له بالمعدة، أقرب إلى حزن مفاجئ بلا سبب واضح، وخلفه، خيط رفيع جدًا من رائحة تشبه الورق المحترق، بعيدة جدًا، كأنها تأتي من زمن آخر لا من مكان آخر.

فتح عينيه فجأة، شاحبًا، وقال: "شممتُ... حزنًا. ورقًا يحترق. لكنه بعيد جدًا، لا أستطيع أن أحدد متى." ابتسمت لالة ريحة ابتسامة رضا نادرة. "هذه هي بداية الرائحة العكسية التي حدّثتك عنها جدّك في مذكراته، أليس كذلك؟ 'رائحة الحبر الذي يُحرق به التاريخ'. لقد بدأتَ تشمّها من بعيد، يا ولدي. لكن اعلم أن كل درسٍ تتقدّم فيه، ستقترب هذه الرائحة أكثر، وسيصبح ثقلها أكبر على صدرك."

استمر التدريب أيامًا متتالية، وفي كل مرة، كان إدريس يشمّ ذلك الخيط البعيد أوضح قليلاً، وأثقل قليلاً على نفسه، حتى بدأ يستيقظ في الليل مرهقًا كأنه حمل حجرًا طوال نهاره لا هواءً. سألته هناء، وهي تلاحظ

شحوبه المتزايد: "هل يستحق الأمر كل هذا التعب؟" أجابها بصدق: "لا أعرف. لكنني أعرف أنني لا أستطيع التوقف الآن، بعد أن بدأت أسمع نداء ذلك الحزن البعيد."

الفصل الرابع عشر: السجاد الشمّي

في مساء أحد الأيام، دعت لالة ريحة إدريس وهناء إلى بيتٍ أكبر في وسط القرية، تُخزَّن فيه، كما أخبرتهما، "ذاكرة الخميس كلها". دخلا قاعة واسعة مظلمة نسبيًا، تُغطي جدرانها سجاجيد معلّقة بألوان وأنماط متداخلة، بعضها قديم متآكل الأطراف، وبعضها حديث النسج نسبيًا.

قالت لالة ريحة، وهي تمرّ يدها بمحبة على أحد السجاجيد الأقدم: "نحن، في الخميس، لا نكتب تاريخنا على الورق، فالورق يُحرَق أو يُصادَر أو يُزوَّر بسهولة. ننسج تاريخنا في هذا الصوف، بخيوط غُمست في مستخلصات نباتية تحمل روائح محدّدة. كل نقشة هنا، تخفي حدثًا، وكل خيط، رائحة لا تُنسى مهما تقادم الزمن."

أشارت إلى سجادة كبيرة معقّدة النقش، غالبة عليها الألوان الحمراء والسوداء، وقالت: "هذه تروي يوم هروب أول عائلة من 'الأنوف' من مطاردة أرشيف الإمبراطورية، منذ أكثر من مئة عام. انظر إلى هذا الخيط الأحمر الغامق." أشارت إليه، فاقترب إدريس وشمّه بحذر، فجاءته رائحة دم مختلطة بغبار الطريق، ورائحة أخرى تحتها، أخفّ، تشبه رائحة الأمل الحذر.

سألته هناء، وهي تتأمل السجادة نفسها بعينين تحملان حزنًا مألوفًا: "أترى؟ هذا هو تاريخ الأنوف الحقيقي، إدريس. لا يُروى في كتاب واحد، ولا يُحتفى به في احتفال رسمي، بل يُحفظ هنا، بصبرٍ، خيطًا فخيطًا، جيلاً بعد جيل، بينما تستمر الرواية الرسمية بتجاهلنا كأننا لم نكن قط."

قضى إدريس ساعات طويلة تلك الليلة يتجول بين السجاجيد، يشمّ خيوطها المتنوعة، ويستمع لشروح لالة ريحة عن كل حدث محفوظ فيها: انتفاضات صغيرة لم تُذكر في أي كتاب مدرسي، معاهدات سرية بين قبائل الأطلس والسلطة المركزية، ووفيات غامضة لأشخاص وقفوا في وجه الصمت الرسمي. شعر بثقل هذا التاريخ المتراكم يتسلل إلى صدره، مضافًا إلى ثقل "الرائحة العكسية" التي بدأت تلازمه منذ درسه الأول.

في نهاية الجولة، توقفت لالة ريحة عند زاوية فارغة من القاعة، لا تحمل سجادة، وقالت بنبرة غامضة: "هذه الزاوية محفوظة لحدثٍ لم يقع بعد. لطالما شعرنا، نحن نساجات القرية، أن هناك سجادة ستُنسج هنا يومًا، بخيوط لم نغزلها إلى الآن، تروي حدثًا أعظم من كل ما نسجناه من قبل." نظرت إلى إدريس مباشرة، رغم عينيها المغمضتين، وأضافت: "وأظن، يا ولد المختار، أنك قد تكون خيطها الأول."

الفصل الخامس عشر: أول محاولة فاشلة

بعد أسبوعين من التدريب المتواصل، قررت لالة ريحة أن إدريس جاهز لمحاولة أولى "موجّهة" لشمّ حدث مستقبلي محدّد، لا مجرد شعور غامض بثقل بعيد. جلسا في نفس المكان المعتاد عند الفجر، لكنها هذه المرة أعطته قطعة قماش صغيرة مبللة برائحة غريبة، ركيكة التركيب، وطلبت منه أن يستنشقها ببطء وهو مغمض العينين، "لتفتح صدره بالاتجاه الصحيح" كما وصفت.

استنشق إدريس، وأغمض عينيه، وحاول أن يستدعي ذلك الثقل الذي تعلّم أن يستشعره، لكن هذه المرة، أراد أن يوجّهه: أراد أن يعرف ما ذلك "الخراب القادم" الذي حذّره منه جدّه في مذكراته. ركّز بكل قوته، حتى شعر بصداع حاد يشتعل خلف عينيه، وبدأت صور مشوّشة تتراقص في ذهنه: ألسنة نيران تلتهم ورقًا، أشكال بلا وجوه واضحة، صوت بعيد يشبه صرخة مكتومة.

لكن الصور لم تتضح، وازداد الصداع حدّة حتى شعر بالغثيان، وانهار جانبًا على الحصيرة، يلهث بصعوبة. أسرعت لالة ريحة نحوه،

ووضعت راحة يدها على جبهته، وقالت بحزم مفاجئ: "توقف! توقف الآن! أنت تحاول أن تفتح بابًا لم يحن وقته بعد، وستنكسر قبل أن ينفتح." ساعدته على الجلوس، ووضعت أمامه وعاءً من ماء الزهر لتهدئة معدته المضطربة.

سألها إدريس، بصوت ضعيف، وهو يمسح العرق البارد عن جبينه: "ماذا حدث؟ لماذا فشلت؟" أجابت وهي تنظر إليه بجدية لم يرها عليها من قبل: "لم تفشل، يا ولدي، لكنك حاولت أن تركض قبل أن تتعلّم المشي. شمّ المستقبل لا يُقاد بالإرادة وحدها، بل يُستقبَل بالصبر. كل من حاول أن يجبر الرائحة العكسية على الظهور قبل نضجها، دفع الثمن: صداعًا في أحسن الحالات، وجنونًا دائمًا في أسوأها."

استلقى إدريس بقية اليوم في غرفته، يتعافى ببطء، وهناء تجلس بجانبه معظم الوقت، صامتة أحيانًا، ومتحدثة بلطف أحيانًا أخرى لتشتيت ذهنه عن الألم. في لحظة صمتٍ بينهما، سألته: "لماذا تُجبر نفسك على كل هذا، إدريس؟ ما الذي يدفعك لهذا الحدّ؟" فكّر طويلاً قبل أن يجيب: "لأنني أشعر أن ذلك الحزن البعيد الذي شممته أول مرة، ليس بعيدًا كما بدا لي. أشعر أنه يقترب أسرع مما تسمح لي لالة ريحة أن أستعد له."

نظرت إليه هناء طويلاً، وفي عينيها مزيج من القلق والإعجاب لم يخطئه إدريس هذه المرة، وقالت بصوت أهدأ من المعتاد: "إذن، دعنا

نستعد معًا، بالسرعة التي يسمح بها جسدك، لا التي يفرضها خوفك. أنا هنا، إدريس. لن أتركك تركض وحدك نحو هذا الخراب، أيًا كان."

الفصل السادس عشر: ماضي هناء

في ليلة هادئة بعد تعافي إدريس التام، جلسا على سطح البيت الذي استقرا فيه، تحت سماء الأطلس المرصّعة بنجوم لا تُرى بهذا الصفاء في المدن، وسألها إدريس، بلطف من يعرف أنه يفتح بابًا حساسًا: "لم تخبريني قصتك كاملة بعد، يا هناء. أعرف أن عائلتك اضطُهدت، لكنني لا أعرف كيف بدأ الأمر بالضبط."

صمتت طويلاً، تتأمل النجوم، ثم بدأت تروي: "جدّي، الحاج مرزوق زهرة المرّ، كان من أوائل من وثّقوا روائح الانقلابات الفاشلة في المملكة، لا نصرة لجهة على أخرى، بل حفظًا للحقيقة فقط. حين وقع انقلاب عام لم يُكتب في كتب التاريخ إلا كـ'محاولة فاشلة معزولة'، كان جدّي يحمل في جيبه قطعة قماش من زي أحد الضباط المتورطين، محتفظًا برائحتها التي تكشف أن القصر نفسه كان على علم مسبق، وربما تورّط، في تدبير الانقلاب لتصفية خصوم سياسيين بذريعة 'إخماد فتنة'."

تابعت، وصوتها يزداد جفافًا مقصودًا كمن يحاول ألا يبكي أثناء السرد: "حاول أن يقدّم هذا الدليل الشمّي في محاكمة سرية لبعض المتهمين، أملاً في تخفيف حكم إعدام على رجل يعرف أنه بريء. لكن قبل أن يُعرَض دليله، اختفت قطعة القماش من منزله ليلاً، واختفت معها كل سجلاته الأخرى. وفي الصباح، وُجد جدّي مضروبًا أمام بيته، لا يتذكر شيئًا، وقيل رسميًا إنه 'تعرّض لسرقة عادية'."

سألها إدريس، بصوت خافت مليء بالتعاطف: "وماذا حدث للرجل الذي أراد جدّك أن ينصفه؟" أجابت بمرارة صافية: "نُفّذ فيه الحكم بعد أسبوع." صمتا طويلاً بعد هذا الجواب، والصمت نفسه يحمل ثقلاً يشبه ثقل الرائحة العكسية التي بدأ إدريس يتعرّف عليها في تدريباته.

أضافت هناء، بنبرة أكثر حزمًا كأنها تستجمع قوتها من جديد: "منذ ذلك اليوم، قررت عائلتي ألا تعتمد على الأرشيف الرسمي أبدًا، وألا تطلب من السلطة إنصافًا لن يأتي. بنينا شبكتنا الخاصة، الصغيرة والصامتة، نجمع الروائح من الشارع، من ملابس الموتى، من جدران السجون، وننتظر يومًا نستطيع فيه أن نروي كل هذا دون أن يُسرَق الدليل مرة أخرى."

نظر إدريس إليها طويلاً في ضوء النجوم الخافت، وشعر أن المسافة بينهما، التي بدأت كتحالف ظرفي بين "أنفين" يواجهان خطرًا مشتركًا،

بدأت تتحوّل إلى شيء أعمق، أقرب إلى شراكة قدر لا شراكة مصلحة.
قال بصدق مفاجئ فاجأه هو نفسه: "أعدك، هناء، أنني، أينما وصلت في هذه الرحلة، لن أدع دليلك يُسرَق مرة أخرى، كما سُرق دليل جدّك."
ابتسمت هي، ابتسامة حقيقية هذه المرة، خالية من كل سخريتها المعتادة، وقالت: "احذر أن تعدني بوعدٍ لا تستطيع أن تفي به، إدريس. أنا لا أثق بالوعود السهلة."

الفصل السابع عشر: توتر بين إدريس وهناء

مع تقدّم الأسابيع في قرية الخميس، بدأت مشاعر إدريس نحو هناء تتضح أكثر مما كان يرغب في الاعتراف به لنفسه، لكن العلاقة بينهما لم تسر بسلاسة كما توقّع. ذات مساء، بعد جلسة تدريب متعبة، سألها بصراحة مفاجئة: "لماذا تتراجعين دائمًا حين أقترب؟ أشمّ فيك رغبة في القرب، لكنك تنسحبين كل مرة كأنك تعاقبين نفسك على شيء لم يحدث."

ابتعدت هناء خطوة، ووجهها يتقلّب بين الغضب والحزن، وقالت بحدّة لم يعهدها منها: "لأنك، يا إدريس، لا تزال، في العمق، ابن ذلك العالم الذي حطّم عائلتي. أنت حفيد رجل عومل بلطف من القصر، رفض العرض بإرادته. أنا حفيدة رجل تعرّض للضرب والتشويه لأنه رفض أن يصمت. الفرق بين رفضينا ليس بسيطًا كما تظن، وأخشى أن ينسيك دفء العرض الذي قدّمه لك النفّاح، مرارةَ ما عانته عائلتي."

صمت إدريس، متأثرًا بصدق كلامها وقسوته معًا، وقال بعد تفكير: "أنت محقة في أن بداياتنا مختلفة، لكنني لا أقف الآن حيث وقف جدّي. أنا هنا، في هذا الجبل، هاربًا مثلك، مهددًا مثلك. ألا يكفي هذا لتثقي بي

قليلاً؟" أجابت وهي تتجه نحو الباب، بصوت أقل حدّة: "الثقة لا تُبنى بليلة اعتراف، إدريس.

أعطني وقتًا، فقط، ولا تستعجل شيئًا لم يزل غضًّا."

في الأيام التالية، حاول كل منهما أن يتجنب الآخر قليلاً، لكن طبيعة عملهما المشترك، والتدريب اليومي عند لالة ريحة، جعلا التجنّب المطلق مستحيلاً. لاحظت لالة ريحة التوتر بينهما، وقالت لإدريس بحكمة عابرة وهو يساعدها في ترتيب أوراق نباتاتها: "الرائحة بين قلبين متقاربين، يا ولدي، تتغيّر أسرع من رائحة الطقس. لا تخف من تغيّرها، فقط لا تحاول أن تُجبرها على العودة قبل نضجها، كما حاولت أن تُجبر رائحة المستقبل من قبل. الدرس نفسه، بثوبٍ آخر."

الفصل الثامن عشر: ظهور المُنظِّف في القرية

في ليلة هادئة، بينما كانت القرية غارقة في سكونها المعتاد، استيقظ إدريس فجأة على شعور خانق، كأن الهواء نفسه ثقُل في صدره دفعة واحدة. نزل من فراشه، وفتح نافذة غرفته، فاجتاحته رائحة عرفها فورًا: رصاص مطحون وعدم، أقوى وأقرب من أي مرة سابقة، تتسلل بين بيوت القرية النائمة كضبابٍ خفي لا يُرى إلا بالأنف.

أيقظ هناء بسرعة، وأخبرها بما شمّه، فتحول وجهها فورًا إلى الجدّية القصوى. أسرعا معًا إلى بيت لالة ريحة، التي كانت مستيقظة بالفعل، جالسة عند بابها، ووجهها المغمض العينين موجّه نحو الجبل المحيط بالقرية. قالت بصوت هادئ يخفي قلقًا عميقًا: "لقد وجدنا أخيرًا، أو هو من وجدنا. أشعر برائحته منذ ساعة، يقترب من الحدود الشمالية للقرية ببطء، كأنه يستكشف لا يهاجم، بعد."

جمعت لالة ريحة سكان القرية بسرعة هادئة لا فيها فوضى، وأمرت بإخفاء السجاجيد الأهم في مخبأ سري تحت الأرض، وطلبت من الجميع أن يبقوا داخل بيوتهم، وألا يخرج أحد بمفرده. قالت لإدريس وهناء: "أنتما الوحيدان اللذان قد يستطيعان مواجهته دون خطر مباشر، لأن

رائحتكما لا تزال جديدة عليه، لم يدرسها بعد كما درس رائحة قدامى هذه القرية."

خرج إدريس وهناء معًا إلى حافة القرية، والقمر يبثّ ضوءًا خافتًا كافيًا بالكاد لرؤية الطريق. عند منحنى الصخرة الكبيرة عند المدخل الشمالي، رآه إدريس للمرة الأولى بعينيه لا بأنفه فقط: شكل بشري تقريبًا، يرتدي عباءة داكنة تتحرك دون ريح تحرّكها، وفي موضع الأنف من وجهه، قناع فضي أملس، بلا ملامح، يعكس ضوء القمر بشكل مقلق.

لم ينبس الكائن بكلمة، لكنه توقف، وأدار "وجهه" الفضي نحوهما ببطء، كأنه يتفحصهما لا برؤية العين بل بشيء أعمق، أقرب إلى استشعار غيابي لرائحتيهما. شعر إدريس برعشة تسري في جسده، ورائحة العدم تتكثف حوله حتى كادت تخنقه. سحبته هناء من ذراعه بقوة، وهمست: "لا تحاول أن تشمّه بعمق، إدريس! هذا ما يفعله بمن يقترب أكثر من اللازم: يمتصّ رائحتهم كما امتصّ رائحة الأحداث من الأرشيف!"

تراجعا ببطء، وبقي الكائن واقفًا في مكانه، غير مطارِد، كأنه أنجز غرضه من الزيارة: أن يُثبت وجوده، أن يُذكّرهم أنه يعرف مكانهم الآن. بعد لحظات، تراجع هو الآخر إلى الظلام واختفى، تاركًا خلفه رائحة عدم عالقة في الهواء لساعات طويلة بعد رحيله، كأثرٍ لا يُمحى بسهولة.

الفصل التاسع عشر: رائحة حبر يحترق

بعد ظهور "المُنظِّف" عند حدود القرية، أصرّت لالة ريحة على أن تسرّع تدريب إدريس، رغم مخاطر الاستعجال التي حذّرت منها من قبل. قالت له: "لم يعد الوقت يسمح بالصبر الذي كنت أفضّله، يا ولدي. إن كان قد وجدنا، فلن يمرّ وقت طويل قبل أن يقرر التحرّك بجدية أكبر. عليك أن تشمّ ما تخشاه، الآن، ولو بثمن باهظ."

جلسا مرة أخرى في جلسة "الشمّ بالقلب"، هذه المرة بحضور هناء التي أصرّت على البقاء، رافضة أن يخوض إدريس هذه التجربة الخطيرة وحيدًا. أغمض إدريس عينيه، واستدعى ذلك الثقل المألوف في صدره، ذلك الخيط البعيد من رائحة الورق المحترق، وهذه المرة، بدلاً من أن يحاول إجباره على التوضّح، تركه، كما علّمته لالة ريحة، يقترب بإرادته.

اقترب الخيط أكثر من أي مرة سابقة، حتى صار واضحًا كرائحة حقيقية لا مجرد إحساس بعيد: رائحة ورق قديم يشتعل، وحبر يتصاعد منه بخار كثيف يتحول إلى عدم، ورائحة أخرى تحته، أعمق وأكثر رعبًا، رائحة "ذاكرة" كاملة تُمحى، لا مجرد وثيقة واحدة. وصف إدريس ما

يشمّه بصوت مرتجف: "إنهم لا يخططون لحرق مبنى، أو إعدام رجل واحد.

إنهم يخططون لمحو ذاكرة كاملة، ذاكرة أمة، دفعة واحدة."

فتح عينيه، شاحبًا مرهقًا لكنه واعٍ هذه المرة، ولم ينهر كما حدث في محاولته الأولى. قالت لالة ريحة، بصوت يحمل مزيجًا من الفخر والقلق العميق: "لقد شممتَ الآن ما شمّه جدّك قبل موته، وحذّرك منه في مذكراته. هذا هو 'الخراب القادم' الذي كتب عنه: ليس حريقًا عاديًا، بل محوًا شاملاً منظّمًا لأرشيف الروائح كله، دفعة واحدة، في ليلة واحدة."

سألت هناء، بصوت متوتر: "وهل يمكن معرفة متى؟" أجاب إدريس، وهو يستجمع بقية الرائحة المتلاشية في ذهنه: "ليس بدقة، لكن الرائحة كانت قريبة جدًا، أقرب من أي وقت شممتها فيه من قبل. أظن أننا لم يتبق لنا سوى أسابيع، ربما أقل."

نظرت لالة ريحة إليهما طويلاً، ثم قالت بحسم: "إذن، لا وقت للمزيد من التدريب هنا. عليكما أن تعودا إلى العاصمة، لتواجها ما بدأتما رحلتكما من أجله."

الفصل العشرون: قرار العودة إلى العاصمة

قضى إدريس وهناء ليلتهما الأخيرة في الخميس يستعدان للرحيل، بينما كانت لالة ريحة تُجهّز لهما "زوّادة رائحية" كما سمّتها: مجموعة قوارير صغيرة تحمل روائح دفاعية وتحذيرية، قد تنفعهما في مواجهة ما هو آتٍ. قالت وهي تسلّم إدريس القارورة الأخيرة، مغلّفة بقطعة قماش سوداء: "هذه، لا تفتحها إلا في أشدّ لحظات اليأس. رائحتها قوية جدًا، ولا أعرف نفسي أثرها الكامل، لكن جدّتي أخبرتني أنها آخر ما تبقى من رائحة السردال الأصلية."

اندهش إدريس، متذكرًا حكاية جدّه القديمة عن السردال، الأسطورة التأسيسية التي حُملت بين الأجيال. سألها: "هل هذه الأسطورة حقيقية إذن؟" أجابت لالة ريحة بابتسامة غامضة: "كل أسطورة، يا ولدي، حقيقية بما يكفي لمن يحتاجها في اللحظة المناسبة. احتفظ بها، ولا تسأل أكثر من هذا الآن."

ودّعا القرية عند الفجر، وسكانها يقفون عند المداخل بصمت مهيب، لا يلوّحون بأيديهم كما يفعل الناس عادة، بل يستنشقون الهواء بعمق، في إشارة وداع خاصة بهم وحدهم، كأنهم يحفظون رائحة الراحلين لأنفسهم

إلى الأبد. قالت هناء لإدريس، وهما يبتعدان في الطريق الجبلي: "لن ننسى هذا المكان، إدريس، مهما حدث لنا فيما بعد."

في الطريق نحو الرباط، اتصل إدريس بالنفّاح من هاتف عمومي في قرية صغيرة توقفا فيها، حذرًا من أن يكون هاتفه الخاص مرصودًا. أخبره بما شمّه واستنتجه: خطة محو شاملة للأرشيف كله. صمت النفّاح طويلاً على الخط، ثم قال بصوت أثقل من المعتاد: "كنت أخشى هذا بالضبط. عد بسرعة، يا إدريس، ولكن احذر: القصر يعرف الآن أنك هربت، وقد يكون بانتظارك من يتوقع عودتك أيضًا."

أغلق إدريس الخط، ونظر إلى هناء التي كانت تقف بجانبه تتابع تعبيرات وجهه بقلق. قال لها بحزم هادئ لم يعهده في نفسه من قبل: "لم يتبق وقت للخوف، هناء. علينا أن نصل إلى العاصمة قبل أن يصل هو، ونوقف هذا المحو قبل أن يبدأ."

أومأت هناء برأسها موافقة، ووضعت يدها على ذراعه لحظة، في إشارة صمتٍ تحمل من الوعد أكثر مما تحمله كل الكلمات التي تبادلاها في الأسابيع الماضية.

خاتمة الجزء الثاني

هذا طريقُ الروائح قد بلغ ختامَه القصير، وقد صار كل ما فيه من درسٍ زادًا لمصيرٍ خطير؛ فمن قريةٍ نسيت الكلامَ إلا بالعبير، تعلّم إدريسُ أن يشمّ ما لم يقع، بصبرٍ يُنضجه التدبير.

ومن قلبٍ تردّد بين الحذر والانجذاب، نبتت محبةٌ لا تُشترى بثمنٍ يسير، فصارت هناءُ له سندًا في الوعثاء، ورفيقةَ دربٍ لا تعرف التقصير.

وشمّ من رائحة الحبر المحترق نذيرًا كبير: أن الخرابَ القادمَ لن يكون حريقًا صغير، بل محوًا شاملاً لذاكرة أمة، في ليلٍ واحدٍ عسير.

وظهر "المُنظِّفُ" عند تخوم القرية، بلا وجهٍ ولا ضمير، قناعُه الفضّي يعكس ضوء القمر الحزين، ورائحتُه عدمٌ يزحف كالوعيد المستطير.

فهذا ختامُ الجزء الثاني، وقد آن أوانُ العودة إلى حيث بدأ كل شيء، إلى العاصمة، حيث ينتظر الأرشيفُ مصيرَه الأخير، بين يدَي إدريسَ وهناء، وما بقي من زمنٍ قصير.

الجزء الثالث: حريق الأرشيف

مقدمة الجزء الثالث

هذا أوان الجِدّ بعد طول التمهيد، وهذا زمن الحسم بعد طول الاستعداد؛ فإن كان الجزءُ الأول كشفَ الصندوقَ، وإن كان الثاني قد شحذ الزاد، فإنّ هذا الجزء الثالث نارٌ تُشعَل، ورمادٌ يتطاير، وقلوبٌ تُمتحَن بأقسى أنواع العناد.

ها هي العاصمةُ تستقبل إدريسَ عائدًا، لا بأبّهة الفاتحين، بل بحذر الهارب الذي يعرف أن كل زقاقٍ قد يخبّئ له رصادا؛ وها هو الأرشيفُ الإمبراطوريُّ، ذلك الصرحُ الذي ظنّه حصنًا، يستيقظ ذات فجرٍ على دخانٍ يعلو منه، وجناحٍ كاملٍ تلتهمه النيران بلا رحمة ولا ارتداد.

وها هو الشيخُ النفّاحُ، ذلك المعلّمُ الذي بدا في أول الأمر سندًا، يُكشَف عن وجهٍ آخر فيه، وجهٍ حيّرَ العقول قرونًا: هل هو خائنٌ يُساوم، أم

حارسٌ يقي المملكة شرَّ الفساد؟ فلسفتُه في "السلام العطري" ستُصدَم بصلابة شابٍّ لا يقبل أن يُشترى صمتُه بثمنٍ، مهما بلغ من رشاد.

وفي هذا الجزء، سيتتبّع إدريسُ وهناءُ أثرَ المُنظِّف بين رفوفٍ محترقة ومواد مسروقة، كصائدَين يقتفيان خطى شبحٍ لا يُمسَك، بلا وجهٍ ولا انقياد؛ حتى تنكشف له، شيئًا فشيئًا، حقيقةُ ذلك الكيان الغامض، وأصلُه العجيب، وسرُّ ولادته من رحم الجحود والإجهاد.

فتهيّأوا، أيها القرّاء، لفصولٍ أطول من سابقاتها، وأشدّ توترًا، وأعمق حزنًا، وأشرس اشتباكًا بين الحقيقة والفساد؛ ففي هذا الجزء تحترق الأوراق، لكن لا تحترق العزيمة، وتُسرَق الروائح، لكن لا يُسرَق العناد؛ وفيه، أيها الكرام، تتشابك خيوط المصير كلها، استعدادًا لمواجهةٍ لم يشهد التاريخُ مثلها في القِدَم ولا في العهد الجديد، مواجهةٍ ستُحسَم فيها كل الحسابات، وتُطوى فيها كل الأوراق، ويُكتَب فيها، أخيرًا، من يستحقّ أن يُقال عنه المُراد.

الفصل الحادي والعشرون: إلى فاس والرباط

دخلا الرباط عند الغسق، لا عبر الطرقات الرئيسية التي اعتاد إدريس سلوكها، بل عبر دروب فرعية اقترحتها هناء، متجنبة نقاط المراقبة المعروفة. كانت المدينة كما هي: أضواؤها تتلألأ بلا مبالاة، ومقاهيها ممتلئة بضحكات لا تعرف شيئًا عمّا يختمر تحت سطح الأشياء، وهذا التناقض بالذات، بين هدوء المدينة الظاهري وثقل ما يحمله إدريس في صدره، جعله يشعر بغربة أعمق من أي غربة عرفها من قبل.

لم يذهبا مباشرة إلى شقة إدريس، فقد حذّرهما النفّاح عبر رسالة مقتضبة أرسلها إلى هاتف هناء: "شقتك مراقَبة منذ ثلاثة أيام. لا تقترب منها. سأرتب لكما مكانًا آمنًا." انتظرا في مقهى صغير هامشي حتى حلول الظلام التام، ثم توجّها، بإرشاد النفّاح الهاتفي الحذر، إلى شقة متواضعة في حي شعبي، يملكها، كما تبيّن لاحقًا، أحد "الأنوف" القدامى الذين تقاعدوا من خدمة الأرشيف منذ عقدين.

في تلك الشقة الضيقة، جلسا أخيرًا يلتقطان أنفاسهما بعد أيام من الترحال المتواصل. سألته هناء، وهي تراقب الشارع من خلف ستارة رقيقة: "ما شعورك، أن تعود إلى المدينة التي طردتك منها، بعد كل ما رأيت

وتعلمت؟" فكّر إدريس طويلاً قبل أن يجيب: "أشعر أنني أعرف الآن رائحة هذه المدينة الحقيقية، لا الرائحة التي اعتدت عليها. أشعر أنني أرى تحت جلدها، وما أراه يقلقني أكثر مما كان يريحني الجهل به."

في اليوم التالي، وبينما كانا يخططان لطريقة الاتصال الآمن بالنفّاح، وصلتهما أخبار عاجلة عبر أحد معارف هناء القدامى في شبكة "الأنوف": حريق كبير اندلع في جناح من أجنحة الأرشيف الإمبراطوري، في الليلة نفسها التي وصلا فيها إلى الرباط. شحب وجه إدريس فور سماعه الخبر، وتذكّر فورًا كلمات جدّه: "رائحة حبر يُحرق به التاريخ." همس لنفسه: "لقد بدأ إذن. لقد بدأ فعلاً."

نظرت إليه هناء بقلق، وقالت: "علينا أن نعرف حجم الضرر، وما الذي احترق بالضبط، وما الذي بقي. لكن هذا يعني أيضًا أن علينا أن نتحرك بسرعة أكبر مما كنا نخطط له." وافقها إدريس، وشعر بثقل مسؤولية جديدة يستقر فوق ثقل الرائحة العكسية التي لا تزال تسكن صدره منذ الخميس، ثقلٌ مضاعَف يُنذر بأن الأيام القادمة لن تمنحهما رفاهية التردد.

الفصل الثاني والعشرون: اكتشاف احتراق جناح من الأرشيف

تمكن النفّاح، بعد جهد واحتياط شديدين، من تهريب إدريس وهناء إلى داخل القصر عبر مدخل جانبي نادر الاستخدام، بعيدًا عن أعين الحراسة الرسمية التي تضاعفت بعد الحادثة.

حين وصلا إلى الجناح المحترق، وقف إدريس صامتًا أمام المشهد، عاجزًا للحظات عن استيعاب حجم الدمار: سقفٌ منهار جزئيًا، رفوفٌ متفحمة، وركامٌ أسود يغطي الأرض حيث كانت آلاف القوارير مصطفة بعناية قبل أيام قليلة فقط.

لكن ما أصابه بصدمة أعمق من منظر الدمار المادي، كان ما شمّه: لم تكن هناك رائحة حريق عادية، لا دخان خشب محترق ولا زجاج منصهر بالمعنى المألوف، بل رائحة أعمق وأغرب، مزيج من الاحتراق الحقيقي وشيء آخر تحته، ذلك "العدم" المألوف الآن لأنفه، ممتزجًا هذه المرة برائحة ثالثة جديدة عليه: رائحة يأسٍ جماعي، كأن الحريق لم يلتهم

موادًا فحسب، بل التهم ذكرى آلاف الأشخاص الذين ارتبطت قصصهم بتلك القوارير.

قال النفّاح، الذي رافقهما رغم إرهاقه الظاهر وحزنه العميق: "أحصينا الخسائر الليلة الماضية بأكملها. اثنتان وأربعون قارورة أصلية، مفقودة تمامًا، لا رماد لها حتى. البقية، الآلاف، احترقت احتراقًا عاديًا يمكن تفسيره، لكن هذه الاثنتين والأربعين، اختفت رائحتها كليًا قبل أن يصل الحريق إليها، وكأن شيئًا امتصّها أولاً، ثم أشعل النار لإخفاء أثر السرقة الحقيقية."

سأل إدريس، وهو يتفحص بقايا أحد الرفوف المتفحمة بحذر: "أي أحداث كانت هذه القوارير الاثنتان والأربعون تحفظ؟" أجاب النفّاح بصوت أثقل مما سمعه إدريس منه من قبل: "جميعها من فترة واحدة، يا إدريس، الفترة التي سبقت وتلت أهم قرارات الاستقلال. كأن أحدًا يحاول أن يمحو، بالتحديد، ذاكرة تلك اللحظة الفاصلة في تاريخ هذه المملكة."

شعرت هناء بقشعريرة، وقالت بصوت منخفض: "هذا يتطابق تمامًا مع ما شممناه في الخميس، إدريس. محو شامل، ليلة واحدة، لحظة فاصلة." أومأ إدريس برأسه، وشعر أن الخيوط المتفرقة التي جمعها طوال الأشهر الماضية، بدأت أخيرًا تتجمع في نسيج واحد مرعب الوضوح،

نسيج يشير بإصبع واحدة نحو حدث قادم، أعظم وأخطر من أي شيء واجهوه حتى الآن.

الفصل الثالث والعشرون: مواجهة أولى مع الشيخ النفّاح

في مكتب النفّاح الصغير، بعد أن غادرت هناء لتتفقّد أخبارًا وصلتها من شبكتها، وجد إدريس نفسه وحيدًا مع معلمه للمرة الأولى منذ عودته. شعر أن اللحظة مناسبة أخيرًا لطرح سؤال ظل يختمر في صدره منذ أسابيع طويلة، سؤال أثقل من كل ما واجهه من روائح وأخطار: "أريد أن أعرف، بصراحة تامة، ما الذي تعرفه عن 'المُنظِّف' ولم تخبرني به بعد."

صمت النفّاح طويلاً، ووجهه الأعمى موجّه نحو النافذة كأنه يرى بها ما لا يراه إدريس. قال أخيرًا: "أعرف أنه لم يكن دائمًا كما هو الآن. كان، فيما مضى، حارسًا من حرّاس هذا الأرشيف، من أفضل الأنوف التي عرفتها هذه المملكة، ربما أفضل من جدّك نفسه." اتسعت عينا إدريس دهشة، وسأل: "ماذا حدث له إذن؟"

أجاب النفّاح، بنبرة يشوبها ألم قديم لم يستطع إخفاءه بالكامل: "طُلب منه، ذات مرة، أن يمحو حدثًا واحدًا، حدثًا صغيرًا كما قيل له، لصالح

'استقرار المملكة'. رفض في البداية، كما ترفض أنت الآن. لكنهم ضغطوا عليه بطرق لا أستطيع أن أخبرك بتفاصيلها الآن، وفي النهاية، رضخ، ومحا ذلك الحدث بنفسه." توقف قليلاً، ثم أضاف بصوت أخفض: "وحين محاه، شعر أن جزءًا من أنفه نفسه قد مُحي معه. لم يعد يشمّ الحقيقة أبدًا بعد ذلك، فقط العدم، في كل شيء حوله."

اتهمه إدريس مباشرة، بصوت يرتجف من الغضب المكتوم منذ أسابيع: "وأنت، من طلب منه ذلك؟ هل كنت أنت من دفعه إلى هذا المصير؟" ارتفع صوت النفّاح للمرة الأولى منذ عرفه إدريس، لا غضبًا بل ألمًا: "لا! لم أكن أنا من طلب، لكنني كنت أعلم، وسكتّ، لأنني ظننت، في غبائي، أن صمتي سيحمي أرواحًا أخرى. كنت مخطئًا، يا إدريس. كان صمتي هو الذي صنع الوحش الذي تطارده أنت الآن."

وقف إدريس، متأثرًا بصدق الاعتراف وقسوته معًا، وقال بصوت أهدأ لكنه لا يقل حزمًا: "إذن أنت تعرف أنك جزء من سبب وجود هذا الخطر. فلماذا تتردد الآن في مساعدتي بكل ما تملك، بدل أن تُبقيني في نصف الحقيقة كما فعلت مع جدّي؟" لم يجب النفّاح مباشرة، بل مدّ يده نحو درج مكتبه، وأخرج منه مفتاحًا نحاسيًا قديمًا، وقال: "لأنني، يا ولدي، ما زلت أخشى أن يتكرر ما حدث للمُنظِّف، لو تسرّعتَ أنت أيضًا. هذا مفتاح قاعة لم أدخلها منذ سنوات. سأعطيك إياه، لكن ليس

اليوم. أولاً، يجب أن تفهم فلسفتي، ولو لترفضها بكامل وعيك، لا بغضبك فقط."

الفصل الرابع والعشرون: فلسفة السلام العطري

جلسا في المكتب حتى ساعة متأخرة من الليل، والنفّاح يشرح لإدريس، بصبر معلّم يعرف أنه يخوض آخر معاركه الفكرية، فلسفته التي حكم بها حياته طوال خمسين عامًا: "تخيّل، يا إدريس، أن كل حقيقة مؤلمة كُشفت دفعة واحدة، بلا تدرّج، بلا استعداد. هل تظن أن مملكة كاملة يمكن أن تتحمل ذلك دون أن تنهار؟ بعض الحقائق، مهما كانت صادقة، تحتاج زمنًا لتُهضَم، وإلا تحوّلت من دواء إلى سمّ."

سأله إدريس بحدة: "ومن يقرر أي الحقائق 'جاهزة' للكشف، وأيها لا؟ أنت؟ القصر؟ من يملك حق حجب رائحة الحقيقة عن أنفٍ يستحقها؟" أجاب النفّاح بهدوء يخفي توترًا عميقًا: "لا أحد يملك هذا الحق بالكامل، أعترف بذلك. لكن الفوضى المطلقة، حين تُطلَق كل الحقائق دفعة واحدة بلا حكمة، قد تكون أشد ظلمًا من الكتمان المؤقت. رأيت هذا بعيني، يا ولدي، حين فُتحت قاعة ممنوعة بالخطأ قبل عقود، وأدّى ذلك إلى اضطرابات دامية لم تكن تستحق ذلك الثمن."

رفض إدريس المنطق بشدة، وقال: "هذا بالضبط ما يقوله كل من يريد أن يُبقي السلطة في يده: 'الحقيقة خطيرة، دعوها لي لأديرها بحكمة'. لكن من يحمي الضحايا الذين تُطمَس قصصهم باسم هذا 'السلام العطري' الذي تتحدث عنه؟ من يعوّض عائلة هناء عن جدّها الذي ضاع دليله باسم استقرار لم يستفد منه إلا من ظلمه؟"

صمت النفّاح طويلاً أمام هذه الحجة، ولأول مرة، بدا عليه شيء أقرب إلى الهزيمة الفكرية لا الغضب. قال أخيرًا بصوت متعب: "لا أملك جوابًا كاملاً لهذا السؤال، يا إدريس. لعلي، بعد خمسين عامًا من هذه الفلسفة، أدركت للتو أنها كانت تبريرًا مريحًا لجبني أكثر منها حكمة حقيقية. لكنني أيضًا لا أملك يقينك الشاب بأن كشف كل شيء دفعة واحدة سيصنع عدلاً بلا ثمن."

قال إدريس، بنبرة اختلط فيها الحزم بشيء من الرأفة تجاه معلمه المتعب: "ربما لا يوجد يقين كامل في أي الطريقين، لكنني أعرف يقينًا واحدًا: الصمت الذي اخترته أنت، صنع المُنظِّف. وأنا لن أختار الصمت نفسه، مهما كلّفني ذلك." نظر إليه النفّاح طويلاً، ثم مدّ يده أخيرًا، وسلّمه المفتاح النحاسي الذي كان قد أخّر تسليمه، وقال: "خذه إذن، يا حفيد المختار. لعلك تنجح فيما فشلتُ فيه، ولعل هذا المفتاح يكون كفّارتي الأخيرة."

الفصل الخامس والعشرون: تعقّب أثر المُنظِّف

بدأ إدريس وهناء، بمساعدة النفّاح ووثائقه القديمة، عملية دقيقة لتعقّب أثر المُنظِّف عبر السنوات الماضية: كل حالة قوارير فارغة، كل حريق "غامض" في أرشيفات صغيرة متفرقة عبر المملكة، كل اختفاء غريب لوثائق أو مقتنيات تاريخية حساسة.

رسموا على خريطة كبيرة كل حادثة بتاريخها ومكانها، وبدأ نمط مرعب يتضح شيئًا فشيئًا أمام أعينهما.

قالت هناء، وهي تتابع بإصبعها خطًا يربط بين عدة نقاط على الخريطة: "انظر، إدريس. الحوادث ليست عشوائية أبدًا. تتبع مسارًا واحدًا، يقترب تدريجيًا من العاصمة، ومن مركز الأرشيف الإمبراطوري نفسه، على مدى السنوات الأربع الأخيرة بالضبط، منذ أن توقف الفحص الدوري لقوارير قسم المقاومة الأولى الذي اكتشفتَه أنت في زيارتك الأولى للأرشيف."

تعمّق إدريس في دراسة الأنماط، مستخدمًا حاسته المتنامية لتحليل أوصاف الروائح المسجلة في تقارير الحرّاس القدامى عن كل حادثة،

حتى لاحظ تفصيلاً أثار فضوله بشدة: في كل حادثة، وبلا استثناء، كانت هناك إشارة عابرة إلى "رائحة عطر نسائي خفيف" مصاحبة لرائحة الرصاص المطحون والعدم، عطر لم يُذكر بالتفصيل في أي تقرير، وكأن كاتبيه لم يعيروه اهتمامًا كافيًا.

سأل النقّاح عن هذا التفصيل الغريب، فتجهّم وجهه فجأة بطريقة أقلقت إدريس أكثر من أي رد فعل سابق منه. قال بصوت متردد: "هذا العطر... أظنني أعرفه. كان عطرًا مفضّلاً لدى إحدى نبيلات القصر القديمات، امرأة عملت في الأرشيف منذ عقود طويلة، قبل أن تختفي فجأة دون تفسير رسمي واضح، في نفس الفترة تقريبًا التي بدأ فيها ظهور أولى حوادث 'المُنظِّف' الموثقة."

تبادل إدريس وهناء نظرة مليئة بالترقب المرعب، وسألته هناء مباشرة: "من كانت هذه المرأة، يا سيدي؟" تردد النقّاح طويلاً قبل أن يجيب، وكأن الاسم نفسه ثقيل على لسانه: "كانت تُدعى، في سجلات الأرشيف، 'الليدي زُبيدة النورس'. وكانت، يا إدريس، معلّمة المُنظِّف الأولى، قبل أن يصبح ما هو عليه الآن. وأظن، وأرجو أن أكون مخطئًا، أنها ربما لم تختفِ كما ظننّا جميعًا طوال هذه السنوات."

لم ينم أحد من الثلاثة تلك الليلة. طلب إدريس من النقّاح أن يفتح له سجلات الموظفين القدامى في الأرشيف، رغم تحذير الشيخ من أن هذه

السجلات محفوظة في قسم منفصل، لا يدخله إلا من يحمل إذنًا مباشرًا من الديوان الملكي نفسه. قال النفّاح، وهو يتوكأ على عصاه نحو باب حديدي صغير في آخر الممر: "سنخاطر بهذا، لأن الوقت لم يعد يسمح بانتظار الأذونات الرسمية. لكن اعلم، يا إدريس، أننا إن ضُبطنا هنا، فلن يكون تبريرًا مقنعًا لأحد."

فُتح الباب الحديدي بمفتاح قديم كان النفّاح يخفيه في طية عباءته منذ عقود، وكشف عن غرفة ضيقة مليئة بخزائن معدنية صدئة، تحمل كل واحدة منها اسم عقد من عقود خدمة الأرشيف. بحث النفّاح بيديه، لا بعينيه، عن الخزانة التي يعرف مكانها عن ظهر قلب، وسحب منها ملفًا رقيقًا مغبرًا، كُتب على غلافه: "زبيدة بنت الحاج النورس — قسم صيانة القوارير — أُلحقت بالخدمة عام كذا."

جلسوا الثلاثة حول طاولة صغيرة، وفتح إدريس الملف بحذر، فوجد بداخله صورة فوتوغرافية باهتة الألوان لامرأة في منتصف العمر، ذات نظرة حادة وابتسامة لا تخلو من غموض، وتقريرًا موجزًا عن سنوات خدمتها، وتاريخ اختفائها المفاجئ المذكور بجملة رسمية جافة: "استقالت لأسباب صحية، ولم تُستكمل إجراءات صرف مستحقاتها." لاحظ إدريس، بأنفه هذه المرة لا بعينيه، أن الورقة نفسها تحمل أثرًا خفيفًا جدًا من رائحة مألوفة: نفس العطر النسائي الذي وجده في تقارير حوادث المُنظِّف.

سألت هناء، وهي تتفحص الصورة بدقة: "هل تعرف كيف كانت علاقتها بالمُنظِّف بالتحديد، يا سيدي؟ من أين لك أنها 'علّمته'؟" أجاب النفّاح بصوت أثقل من ذي قبل: "لأنني كنت شاهدًا، من بعيد، على تدريبها لحارس شاب في أروقة هذا الأرشيف، منذ أكثر من ثلاثين عامًا. كان اسمه، إن كان لا يزال يحق لي أن أستخدم اسمه البشري، 'يونس الصافي'. كان تلميذها المفضل، وأفضل أنفٍ عرفه هذا الجيل، بعد جدّك مباشرة."

توقف النفّاح، وكأن الاسم نفسه يستحضر ذكرى مؤلمة، ثم أضاف: "اختفت زبيدة فجأة، كما رأيتم في الملف، وبعد أشهر قليلة من اختفائها، بدأ يونس يتغيّر: أصبح صامتًا أكثر، منعزلاً، وبدأت تقاريره عن جرد القوارير تحمل أخطاء لم تكن من طبعه أبدًا. ثم، ذات ليلة، اختفى هو الآخر، وبعدها بأسابيع، بدأت أولى حوادث القوارير الفارغة الموثقة في تاريخ هذا الأرشيف."

شعر إدريس بثقل هذه المعلومات يستقر في صدره جنبًا إلى جنب مع ثقل الرائحة العكسية التي لا تفارقه، وسأل: "هل تظن أنها كانت تُعدّه لشيء ما منذ البداية؟ أنها لم تختفِ، بل اختبأت لتُكمل خطة أكبر بكثير من مجرد تدريب حارس؟" لم يجب النفّاح مباشرة، بل نظر إلى الفراغ أمامه بعينيه العمياوين، وقال بصوت يكاد يكون همسًا: "أخشى ذلك، يا

ولدي. أخشى أننا لم نكن نواجه، طوال هذه السنوات، مجرد حارسٍ منحرف، بل خطة مُحكمة، بدأت قبل أن يولد أحدنا نحن الثلاثة."

الفصل السادس والعشرون: كشف هوية المُنظِّف الحقيقية

قرر الثلاثة أن الخطوة التالية يجب أن تكون البحث عن أي أثر آخر ليونس الصافي، بعيدًا عن سجلات الأرشيف الرسمية التي بدت مقصودة الفراغ في كل ما يخصه بعد اختفائه. اقترحت هناء أن تستعين بشبكة "الأنوف" الخاصة بها، تلك الشبكة الصامتة التي راقبت القصر من الخارج لثلاثة أجيال، عسى أن يكون أحدهم قد احتفظ بذكرى أو وثيقة لم تصل إليها يد المحو الرسمية.

استغرق الأمر يومين من التحريات الحذرة، حتى قادتهم خيوط متفرقة إلى امرأة عجوز تعيش في ضاحية هادئة من ضواحي الرباط، كانت في شبابها تعمل خادمة في منزل عائلة الصافي قبل اختفاء يونس بسنوات. استقبلتهم بحذر شديد في البداية، لكن حين شمّت رائحة إدريس، ولاحظت تشابهها الغريب برائحة "معلّم قديم" تذكرته من زياراته المتكررة لبيت العائلة، وافقت أن تتحدث.

قالت العجوز، وهي تُعدّ لهم الشاي بيدين مرتجفتين قليلاً من العمر: "يونس كان طفلاً حساسًا جدًا، أكثر حساسية من أن يتحمل ما حُمّل إياه لاحقًا. أذكر أنه كان يبكي، وهو طفل صغير، كلما مرّ بمكان فيه رائحة دم، حتى لو كانت رائحة دجاجة تُذبح للعشاء. كان أهله يفخرون بحساسيته هذه، ويقولون إنها علامة أنفٍ عظيم قادم." توقفت، ثم أضافت بحزن واضح: "لم يكونوا يعرفون أن هذه الحساسية نفسها ستكون نقطة ضعفه التي استغلّها من استغلّه لاحقًا."

سألها إدريس: "هل تعرفين ماذا حدث له بالتحديد، في الحادثة التي غيّرته؟" أطرقت العجوز رأسها طويلاً قبل أن تجيب: "سمعت، من إحدى صديقاته القديمات في الخدمة، أنه أُجبر على شمّ حدثٍ فظيع بتفاصيله كاملة، حدث مجزرة صغيرة وقعت في قرية نائية أثناء إحدى حملات 'تهدئة الفتن' كما كانوا يسمونها. طُلب منه أن يمحو رائحة تلك المجزرة بالكامل من الوجود، لأن كشفها كان سيسبب فضيحة كبرى لضباط رفيعي المستوى في ذلك الوقت."

أكملت، وصوتها يتهدج قليلاً: "قيل لي إنه رفض في البداية، وبكى أمامهم كطفل، وقال إنه لا يستطيع أن يمحو صراخ أولئك الضحايا من رائحة الأرض التي شمّها. لكنهم هددوه، بطريقة أو بأخرى، حتى رضخ. وبعد أن محا تلك الرائحة، لم يعد هو نفسه أبدًا. توقف عن الأكل

بشكل طبيعي، وبدأ يتحدث عن نفسه وكأنه 'صار فارغًا من الداخل'، حتى اختفى تمامًا بعد أشهر قليلة."

جلس إدريس صامتًا، يستوعب ثقل هذه القصة، ثم سألها آخر سؤال: "وزبيدة النورس، هل كانت حاضرة في تلك الحادثة؟" أومأت العجوز برأسها ببطء، وقالت: "كانت هي من أشرفت على تدريبه ليكون قادرًا على المهمة أصلاً. سمعت أنها قالت له، حين رفض في البداية: 'الأنف الحقيقي لا يهرب من رائحة قوية، يا يونس، بل يتعلّم أن يستوعبها ويحوّلها إلى قوة.' لا أعرف إن كانت تقصد خيرًا أو شرًا يومها، لكن ما حدث بعدها كان أقرب إلى لعنة منه إلى تعليم."

عادوا من زيارتهم تلك، صامتين طوال الطريق، وكل واحد منهم يحمل في صدره نسخة مختلفة من الحزن على ما سمعه. قالت هناء أخيرًا، كاسرة الصمت: "لم يعد بإمكاني أن أكرهه بالكامل، إدريس، بعد ما سمعناه اليوم. إنه ضحية بقدر ما هو خطر." وافقها إدريس بصمت مؤلم، وشعر أن مهمته لم تعد فقط إيقاف المُنظِّف، بل أيضًا، ربما، محاولة فهم كيف يمكن لأنف بريء أن يتحول إلى كل هذا العدم، وهل ما زال هناك، تحت ذلك القناع الفضي، بقية من ذلك الطفل الذي كان يبكي لرائحة الدم.

الفصل السابع والعشرون: التسلل إلى قاعة الروائح الممنوعة

بالمفتاح النحاسي الذي سلّمه النفّاح لإدريس، قرروا أن الخطوة الحاسمة التالية هي دخول "قاعة الروائح الممنوعة"، ذلك المكان الذي لم يدخله النفّاح نفسه منذ سنوات طويلة، والذي يُقال إن بداخله قوارير قديمة جدًا، مختومة بشمع أحمر، تحمل روائح خطيرة جدًا لدرجة أن حتى أشد الأنوف خبرة يخشى فتحها.

خططوا للتسلل ليلاً، في توقيت تناوب الحراسة الذي حدده النفّاح بدقة من خبرته الطويلة. تسلل إدريس وهناء عبر ممرات جانبية ضيقة، بمساعدة رسم تخطيطي قديم رسمه النفّاح بذاكرته، حتى وصلا إلى باب حجري ثقيل، منحوت عليه رمز الأنف المفتوح بحجم أكبر من أي رمز رأياه من قبل، محاطًا بزخارف تحذيرية قديمة الطراز.

أدخل إدريس المفتاح النحاسي في القفل، وشعر بمقاومة غريبة، كأن الباب نفسه "يشمّ" يده ويتردد في قبولها. أدار المفتاح بصعوبة، وسمع سلسلة من الأصوات الميكانيكية المعقدة، قبل أن ينفتح الباب أخيرًا ببطء،

كاشفًا عن ظلام كثيف تنبعث منه روائح متداخلة قوية جدًا، أثقل بكثير من أي شيء شمّه إدريس في الأرشيف العام.

أضاءا مصباحيهما اليدويين، فكشفا عن قاعة دائرية صغيرة نسبيًا مقارنة بالقاعة الكبرى، لكنها مليئة برفوف قليلة العدد، تحمل قوارير أكبر حجمًا من المعتاد، كل واحدة مختومة بشمع أحمر سميك، وبطاقات كُتب عليها، بخط قديم متآكل، أسماء أحداث لم يسمع بها إدريس من قبل: "مجزرة الوادي الصامت"، "خيانة القصبة السوداء"، "ليلة الأسياد المحروقين".

همست هناء، وهي تتفحص الرفوف بحذر شديد: "هذه ليست مجرد أحداث مخفية، إدريس. هذه أحداث تم التعامل معها كخطر وجودي على المملكة نفسها. لهذا خُتمت بهذا الشكل." تقدم إدريس ببطء نحو وسط القاعة، حيث لاحظ منصة حجرية صغيرة مرتفعة قليلاً، فارغة إلا من أثر دائري يدل على أن قارورة كانت موضوعة هناك لفترة طويلة، ثم أُزيلت مؤخرًا.

لاحظت هناء ذلك أيضًا، وقالت بصوت متوتر: "هذا يشبه تمامًا وصف النفّاح لمكان القارورة السوداء التي حذّرك منها جدّك في مذكراته." شعر إدريس ببرودة تسري في جسده، وتذكر فورًا تحذير جدّه: "إياك أن تفتح القارورة السوداء."

نظر حوله بذعر متصاعد، وسأل: "هل يُعقل أن يكون المُنظِّف قد سبقنا إلى هنا؟ هل أخذها بالفعل؟"

قبل أن تجيبه هناء، سمعا صوت خطى بعيدة تقترب في الممر الخارجي، ثقيلة، بطيئة، منتظمة بشكل غير طبيعي. تجمّدا في مكانهما، وأطفآ مصباحيهما فورًا، واختبآ خلف أحد الرفوف الكبيرة، بينما بدأت رائحة الرصاص المطحون والعدم تتسلل ببطء تحت الباب المفتوح، أقوى وأقرب من أي مرة سابقة، معلنة أنهما لم يعودا وحدهما في تلك القاعة المظلمة المكتومة الأسرار.

الفصل الثامن والعشرون: القارورة السوداء

ظهر عند الباب، بعباءته الداكنة وقناعه الفضي الأملس، يتحرك ببطء موزون داخل القاعة، وكأنه يعرف كل شبر فيها عن ظهر قلب. حمل بين يديه قارورة سوداء اللون، كبيرة نسبيًا، لا يعكس سطحها أي ضوء، وكأنها تبتلع الضوء بدل أن تعكسه. توقف في وسط القاعة، قريبًا جدًا من مخبأ إدريس وهناء، ورفع القارورة أمامه، كمن يتأمل جائزة ثمينة انتظرها طويلاً.

همست هناء، بصوت لا يكاد يُسمع: "هذه هي، إدريس. القارورة السوداء. لقد أخذها بالفعل." شعر إدريس بصراع داخلي عنيف: هل يتقدم الآن، في مواجهة مباشرة قد تكون كارثية، أم ينتظر، مخاطرًا بأن يفتح المُنظِّف القارورة ويطلق ما بداخلها قبل أن يفهما حتى ما هو؟ حسم الأمر حين رأى المُنظِّف يبدأ بفكّ الشمع الأحمر القديم عن سدادة القارورة بحركات بطيئة طقوسية.

اندفع إدريس من مخبئه، صارخًا: "توقف!" التفت المُنظِّف نحوه ببطء، بلا استعجال، وكأن صراخ إدريس لم يحمل أي تهديد حقيقي بالنسبة له. لم ينطق بكلمة، لكن رأسه المقنّع مال قليلاً، في إيماءة أقرب إلى الفضول

منها إلى العدائية. قال إدريس، محاولاً أن يخاطب ما تبقى من "يونس" تحت ذلك القناع: "أعرف من كنت، يا يونس. أعرف ماذا فعلوا بك. لست مضطرًا أن تكمل ما بدأوه."

توقفت حركة يدي المُنظِّف للحظة، وكأن الاسم نفسه، "يونس"، أحدث ارتجاجًا خفيفًا في ذلك الكيان الذي بدا بلا مشاعر. لكن سرعان ما استعاد حركته، وأكمل فكّ الشمع الأخير، بينما اندفعت هناء أيضًا من مخبئها، محاولة الاقتراب من جانب آخر. رفع المُنظِّف يده الحرة فجأة، فشعرا كلاهما بموجة من الدوار الشديد، كأن الهواء نفسه امتُصّ من حولهما للحظة، فتوقفا عن التقدم مرغَمين.

فتح القارورة السوداء أخيرًا. لم يخرج منها دخان ولا سائل، بل موجة رائحة هائلة اجتاحت القاعة كلها دفعة واحدة: رائحة حريق ضخم، أوسع من أي حريق تخيله إدريس من قبل، ورائحة صراخ جماعي يصعب وصفه، ورائحة حبر يتصاعد ويتحول إلى عدم شامل، ورائحة أخرى تحت كل هذا، أعمق وأكثر رعبًا: رائحة "نسيان" أمة كاملة لنفسها، دفعة واحدة، إلى الأبد.

سقط إدريس على ركبتيه، غير قادر على تحمل ثقل ما شمّه، ورأى، لا بعينيه بل بذلك الإدراك العميق الذي علّمته إياه لالة ريحة، صورًا مرعبة لمستقبل قريب جدًا: ليلة واحدة، حريق يمتد عبر المملكة كلها، لا

في الأرشيف فقط، بل في كل مكتبة وكل بيت يحتفظ بوثيقة، وذاكرة أمة بأكملها تتحول إلى رماد صامت، بينما يستمر الناس في حياتهم اليومية، لا يعرفون أنهم فقدوا نصف تاريخهم بين ليلة وضحاها.

سحبته هناء من ذراعه بقوة، صارخة: "إدريس! أفق! يجب أن نمنعه الآن!" لكن قبل أن يستطيعا التحرك، اختفى المُنظِّف فجأة، لا بخطى هاربة، بل وكأنه ذاب في الظلام نفسه، تاركًا خلفه رائحة الخراب معلّقة في الهواء، وقارورة سوداء فارغة ملقاة على الأرض، وإدريس مرتجفًا، يعرف الآن، بيقين مرعب لا مجال للشك فيه، أن الموعد النهائي لتلك الكارثة لم يعد بعيدًا، بل أصبح، ربما، أقرب من أن يُحسب بالأيام.

الفصل التاسع والعشرون: المواجهة الكبرى

عادوا إلى مكتب النفّاح في حالة يرثى لها، إدريس ما زال يرتجف من أثر الرائحة الهائلة التي استنشقها، وهناء تحاول أن تجمع شتات تفكيرها لتشرح للنفّاح ما حدث. حين سمع الشيخ التفاصيل كاملة، شحب وجهه الأعمى بطريقة لم يرها إدريس عليه من قبل، وقال بصوت يكاد ينكسر: "إذن، لم يبق من وقت للتخطيط الحذر. إن كان قد فتح القارورة السوداء واستوعب رائحتها بالكامل، فهو الآن يحمل في داخله مخطط الكارثة كله، جاهزًا للتنفيذ في أي لحظة."

سأله إدريس: "أين سيحدث هذا؟ وكيف؟" فكّر النفّاح طويلاً، ثم قال: "قاعة الأرشيف الكبرى نفسها، حيث تتركز أعظم الروائح الأصلية للمملكة كلها. إن أراد أن يمحو ذاكرة أمة بأكملها في ضربة واحدة، فلن يجد مكانًا أنسب من قلب هذا الأرشيف، حيث تتكثف كل الروائح في مكان واحد، جاهزة لتنتشر كالوباء إن أُطلقت بالطريقة الصحيحة."

لم يُضيّعوا وقتًا. تحرك الثلاثة، برفقة عدد قليل من حراس النفّاح الموثوقين، نحو القاعة الكبرى، ووصلوا إليها في منتصف الليل، ليجدوا المُنظِّف واقفًا بالفعل في مركزها، محاطًا بهالة خفيفة من الروائح

المتصاعدة من حوله، وكأن جسده نفسه أصبح مصدرًا للعدم الزاحف. رفع رأسه المقنّع ببطء حين شعر بدخولهم، دون أن يُبدي أي استعجال أو قلق.

تقدم إدريس ببطء، محاولاً أن يكسب أي وقت إضافي بالحديث، آملاً أن يصل إلى ما تبقى من "يونس" في الداخل. قال بصوت يرتجف لكنه ثابت: "يونس، أعرف أنك تسمعني في مكان ما تحت هذا القناع. زبيدة استغلت حساسيتك، حوّلوك إلى سلاح ضد إرادتك. لست مضطرًا أن تكون أداة محوهم إلى الأبد. يمكنك أن تختار، الآن، أن تتوقف."

للحظة طويلة، لم يتحرك المُنظِّف، وشعر إدريس بأمل خافت يتسلل إلى صدره. لكن فجأة، دوّى صوت من تحت القناع، مبحوح، متهدج، كأنه لم يُستخدم منذ عقود: "التوقف... لا معنى له بعد الآن. لقد امتلأتُ بالعدم حتى آخر ذرة مني. لم يعد هناك 'يونس' يكفي لاختيار أي شيء." ثم، دون سابق إنذار، اندفع نحو أقرب رف من الروائح الأصلية، ممدًا يده نحو القوارير في حركة تنذر بالبدء الفعلي للمحو الشامل.

في تلك اللحظة الحاسمة، تذكر إدريس شيئًا: القارورة الأخيرة التي أعطته إياها لالة ريحة في الخميس، تلك التي حذّرته من فتحها إلا في أشد لحظات اليأس، والتي قيل إنها آخر ما تبقى من رائحة السردال الأصلية. أخرجها من حقيبته بيد مرتجفة، وصرخ نحو هناء والحراس:

"افتحوا كل القوارير الأصلية دفعة واحدة! كل ما تستطيعون الوصول إليه، الآن!"

تردد الجميع للحظة أمام هذا الأمر الذي بدا جنونيًا، لكن هناء، بثقتها المعتادة في حدس إدريس، بدأت فورًا بفتح أقرب القوارير، وتبعها الحراس بتردد سرعان ما تحول إلى اندفاع حين رأوا الأثر الفوري: مع كل قارورة تُفتح، بدأت رائحة الحقيقة الأصلية تنتشر في القاعة، طبقة فوق طبقة، حتى تحوّل الهواء نفسه إلى نسيج كثيف من كل حدث حقيقي حفظه الأرشيف عبر قرون.

فتح إدريس، في اللحظة نفسها، القارورة الأخيرة التي أعطته إياها لالة ريحة، فانبعثت منها رائحة لم يشمّها من قبل، رائحة بدائية عميقة، أقرب إلى رائحة البحر الأول والمطر الأول والنَفَس الأول، رائحة "أصل" كل الروائح، امتزجت فورًا مع موجة الحقيقة المتصاعدة من القوارير المفتوحة، لتصنع عاصفة رائحية هائلة اجتاحت القاعة بأكملها.

صرخ المُنظِّف صرخة مكتومة من تحت قناعه، وترنّح للخلف، كمن يتلقى ضربة لا تُرى، فهو الذي تغذّى طويلاً على العدم، لم يستطع أن يتحمل هذا الفيض المفاجئ من الحقيقة الكاملة غير المُنقّاة. سقط على ركبتيه، ويداه ترتجفان وهما تحاولان، بلا جدوى، أن تصدّا موجة

الروائح المتدفقة من كل جانب، وبدأ قناعه الفضي، للمرة الأولى، يُظهر شقوقًا دقيقة، كأن الحقيقة نفسها بدأت تكسره من الداخل إلى الخارج.

الفصل الثلاثون: انـهيار المُنظِّف

استمر القناع الفضي بالتشقق، خطًّا بعد خط، كزجاج يُضرب من الداخل بمطرقة لا تُرى. تراجع المُنظِّف خطوات متعثرة، وهو يحاول، بيدين ترتجفان، أن يمسك ما تبقى من تماسكه أمام هذا الفيض الهائل من الروائح الحقيقية التي غمرت القاعة بأكملها. صرخت هناء نحو إدريس: "لا تتوقف! استمر بفتح ما تبقى من القوارير، أيًا كان الثمن!"

لم يكن الثمن هيّنًا. شعر إدريس نفسه بدوار عنيف وهو محاط بكل تلك الروائح المتضاربة: أفراح وأتراح، انتصارات وهزائم، ولادات ووفيات، كلها تتصارع في الهواء دفعة واحدة، كأن قرونًا من تاريخ المملكة تحاول أن تتنفس في آنٍ معًا بعد أن حُبست طويلاً. لكنه استمر، مدفوعًا بشيء أعمق من إرادته الواعية، بشيء يشبه نداء جدّه الصامت من عمق الغياب.

سقط قناع المُنظِّف أخيرًا على الأرض الحجرية، بصوت معدني حاد ارتد صداه في أرجاء القاعة. وخلف القناع، لم يكن هناك وجه مشوّه أو مخيف كما توقع الجميع، بل وجه رجل في الخمسينيات تقريبًا، شاحب جدًا، بعينين غائرتين تحملان تعبًا يفوق العمر نفسه، وملامح ما تزال،

رغم كل شيء، تحمل أثرًا خافتًا من طفولة حساسة بكت يومًا لرائحة الدم.

نظر يونس الصافي حوله، كمن يستيقظ من سُبات طويل جدًا، وهمس بصوت متهدج، أول كلمات بشرية حقيقية ينطقها منذ عقود: "أين... أين أنا؟ كم مرّ من الزمن؟" اقترب منه إدريس ببطء، حذرًا لكن بلا خوف هذه المرة، وقال بلطف: "لقد عدت، يا يونس. عدت أخيرًا." انهار يونس على ركبتيه، يبكي بصمت، كطفل ذلك الذي كانه يومًا، قبل أن تُسرق منه إنسانيته بالقوة.

لكن الفرحة باستعادته لم تدم طويلاً. شعر الجميع فجأة برائحة جديدة تتسلل إلى القاعة، مختلفة عن كل ما سبق: عطر نسائي أنيق، بارد، محسوب بدقة، يقترب من الباب الخارجي دون استعجال. ظهرت عند المدخل امرأة طاعنة في السن لكنها لا تزال تحمل هيبة آسرة، ترتدي ثوبًا داكنًا أنيقًا، ونظرت إلى المشهد أمامها بابتسامة باردة لم تحمل أي مفاجأة حقيقية.

قالت بصوت هادئ رخيم يخفي قسوة عميقة: "أرى أن تلميذي القديم قد خذلني أخيرًا، كما توقعت أن يفعل يومًا، لضعفه الأصيل الذي لم يفارقه قط." أدرك الجميع فورًا: كانت هذه زبيدة النورس نفسها، حية، لم تختفِ

يومًا، بل اختارت الظل بمحض إرادتها، تراقب وتخطط عبر عقود، مستخدمة يونس كأداة تنفيذ لا أكثر.

تقدم النفّاح، متكئًا على عصاه بصعوبة واضحة بعد إرهاق الليلة الطويلة، وقال بصوت يحمل مزيجًا من الغضب والحزن القديم:
"زبيدة... كنت أظن أنني أنعيك منذ ثلاثين عامًا. كل هذا الوقت، وأنتِ من كنتِ وراء كل شيء؟" ابتسمت هي ابتسامة باردة أخرى، وقالت: "لم أكن وراء كل شيء، يا صديقي القديم. كنت فقط أكمل ما بدأه هذا الأرشيف نفسه منذ تأسيسه: حماية استقرار المملكة، بأي ثمن يلزم، حتى لو كان الثمن ذاكرتها بأكملها."

لم تحاول زبيدة أن تقاتل أو تهرب؛ بدلاً من ذلك، تراجعت ببطء نحو الظلام عند حافة القاعة، وقالت بنبرة تحذيرية أخيرة: "ظنكم أنكم أوقفتم شيئًا الليلة، لكنكم لم توقفوا سوى أداة واحدة. الفكرة التي صنعت المُنظِّف لن تموت بموته، فهناك دائمًا من يفضّل صمتًا مريحًا على حقيقة مؤلمة، وطالما بقي هذا صحيحًا، سيبقى هناك من يحمل هذا القناع، بشكل أو بآخر." ثم اختفت في الظلال، ولم يستطع أحد أن يلحق بها في تلك اللحظة، مثقلين جميعًا بأحداث تلك الليلة الطويلة.

أُعيد يونس الصافي، في الأيام التالية، إلى رعاية طبية وإنسانية بإشراف النفّاح شخصيًا، بعيدًا عن أي عقاب أو انتقام، لأن الجميع أدرك أنه كان

ضحية قبل أن يكون خطرًا. أما الأرشيف نفسه، فبدأ يستعيد، شيئًا فشيئًا، توازنه، بينما بدأت أخبار ما حدث تلك الليلة تتسرب، بحذر شديد في البداية، إلى دوائر ضيقة من كبار المسؤولين، مُحدثة زلزالاً صامتًا في أروقة السلطة لن تُعرف تبعاته الكاملة إلا مع مرور الوقت.

جلس إدريس وهناء، عند فجر ذلك اليوم التالي، على درجات الأرشيف الكبرى، منهكين جسديًا وروحيًا، لكن بشعور غريب من السكينة يعلو على كل التعب. قالت هناء، وهي تتأمل الشمس تبزغ ببطء فوق أسوار القصر: "لقد انتهت هذه المعركة، إدريس، لكنني أشعر، كما قالت زبيدة، أن الحرب الحقيقية ربما لم تبدأ إلا الآن." أومأ إدريس برأسه بصمت موافق، وهو يدرك أن ما يأتي بعد كشف الحقيقة، غالبًا، أصعب من كشفها نفسه: مسؤولية حملها، ونشرها، وإعادة بناء ما تهدّم من أجلها.

خاتمة الجزء الثالث

هذا هو حريقُ الأرشيف وقد بلغ ذروته المرجوّة، وهذه هي المواجهةُ وقد كشفت عن كل مكنون؛ فمن قاعةٍ ممنوعةٍ كانت تُخفي أعتى الشجون، خرجت قارورةٌ سوداء، أطلقت رائحةَ خرابٍ يُرهب حتى أشجع العيون.

ومن قناعٍ فضّيٍّ صمتَ دهرًا عن كل حنون، انبعث صوتُ يونسَ الصافي، ذلك الطفل الذي بكى يومًا لرائحة الدم المسفوك، قبل أن يُحوَّل قسرًا إلى أداة مَحوٍ بلا رحمة ولا شؤون.

وشمّت زبيدةُ النورس، من حيث اختبأت في الظلّ سنينًا، أن تلميذها قد اقترب أخيرًا من تنفيذ خطتها الدفينة، خطةِ محوٍ شاملٍ لا يُبقي لأمةٍ ذاكرةً ولا يُقيم لها وزنًا ولا يزنُ لها موزون.

لكنّ إدريسَ، حفيدَ المختار، وهناءَ، ابنةَ المرارة والزهر، وقفا في وجه هذا الطوفان بقلبين لا يعرفان الجبن ولا الهوَون، وفتحا القوارير كلَّها دفعةً واحدة، فامتزجت الحقيقةُ بالحقيقة، وتكاثفت في الهواء كأنها روحُ أمةٍ تستفيق من سباتٍ مسنون.

فارتجّ الكيانُ الذي كان يُدعى المُنظِّف، وترنّح تحت وطأة ما لم يعتده من فيضِ الصدق المصون، وتشقّق قناعُه الفضّي شقًّا فشقًّا، كأنّ الحقيقةَ ذاتها تنحته من الداخل نحتَ الزمن للحجارة والقرون.

فسقط القناعُ أخيرًا، وعاد يونسُ إنسانًا لا كيانًا مسكون، وظهرت زبيدةُ من ظلّها الطويل، لتُنذر بأن الفكرة أخطر من صاحبها، وأن جذور الصمت أعمق من أن تُجتث في ليلة، ولو بلغ الكشفُ ما بلغ من الوضوح والبيان واليقين المصون.

فهذا ختامُ الجزء الثالث، وقد حُسم الصراعُ بين المحو والتدوين، بين النسيان والذكرى، بين العدم والكينون؛ فليُكتب لإدريس، أخيرًا، أن يُلقَّب بحارس الذاكرة الأمين، لا بجلاّدها المسكون؛ وليبدأ، من بعد هذا الحسم، فصلٌ جديد كلّه إعمارٌ وتدوين، فصلٌ عنوانه ما بعد الحريق،

حيث تُبنى الذاكرةُ من جديد، حجرًا حجرًا، وقارورةً قارورة، إلى أن يستوي البنيانُ ويستقيم ويكون.

الجزء الرابع: ما بعد الحريق

مقدمة الجزء الرابع

أتى الصبحُ يجلو للنفوسِ جِراحا ... ويُهدي لمن أدمى الفؤادَ سَماحا

وقد كان ليلٌ في خزائنِ صمتِنا ... يُخبّئ زَيفًا خِلتَه الصبحَ لاحا

فهبّت رياحُ الحقّ تكنسُ ما مضى ... وتفتحُ للتاريخِ صدرًا وَضّاحا

فيا قارئي، إن جئتَ تبغي بشارةً ... فهذا هو الجزءُ الأخيرُ قد باحا

هذا زمنُ ما بعد الحريق، وزمنُ ترميم الجراح، هذا أوانُ العدّ من جديد، لا أوان الاجتراح؛ فقد سقط القناعُ، وانكشف المُخبّأ، وبقيت المملكةُ أمام مرآتها، عاريةً من كل مساحيق الإصلاح المزيّف، عاريةً إلا من صدقٍ مباح.

هذا هو الجزء الذي فيه تُحصى الخسائر لا الأمجاد، وفيه يُسأل كلُّ بطلٍ: بأيّ ثمنٍ ربحتَ؟ وماذا خسرتَ في سبيل هذا النصر الذي يشبه الأفراح، وقد كان طريقُه مفروشًا بالدموع أكثر مما كان مفروشًا بالنجاح؟

ستُروى فيه حكايةُ الشيخ النفّاح، وقد أدّى ما عليه من كفّارةٍ طال انتظارها، بين بقاءٍ في منصبه أو رحيلٍ يُريح ضميرَه المثقل بعبء الصمت القديم وما جرّه من جراح.

وستُروى فيه حكايةُ أرشيفٍ يُعاد بناؤه، لا حصنًا للسلطة كما كان، بل بيتًا مفتوحًا لكل من يبحث عن رائحة الحقيقة بلا وصاية ولا استملاح؛ أرشيفٌ يُشرَك فيه الشعبُ لا يُقصى عنه، ويُصبح فيه الصدقُ متاحًا لا مباحًا لأهل الجاه والسماح وحدهم دون سواح.

وستُروى فيه عودةُ إدريس إلى دكان جدّه في فاس، ليجلس حيث جلس المختار العطّار عمرًا كاملاً، ويبدأ، بقلمٍ مغموسٍ في حبرٍ معطّر لا في

حبرٍ عادي، تدوين "تاريخ المغرب الجديد"، تاريخًا لا يُكتب بالسيف، بل يُكتب بالصدق والبَوح والانشراح.

فتابعوا، أيها القرّاء الكرام، هذا الجزء الأخير من رحلة الروائح، ففيه يلتقي الحزنُ بالفرح، والفقدُ بالعطاء، والنهايةُ ببداية لا تنتهي، على طريقة كل حكاية صادقة، لا تُغلَق صفحتُها الأخيرة إلا لتُفتَح، في قلب القارئ، صفحةٌ جديدةٌ لا تُبارِح.

الفصل الحادي والثلاثون: الثمن الشخصي

في الأيام التي تلت تلك الليلة الطويلة، بدأ إدريس يشعر بثقل ما حدث يترسّب في جسده وروحه معًا، لا كنصر خالص كما تخيله يومًا، بل كتجربة تركت فيه ندوبًا لا تُرى بالعين. لاحظ أن حاسة الشم لديه، التي كانت مصدر فخره وعذابه معًا طوال الأشهر الماضية، أصبحت أكثر حدة من أي وقت مضى، لدرجة أنه بدأ يشمّ أشياء لم يكن يرغب في شمّها: قلق الغرباء في الشارع، أكاذيب صغيرة في أحاديث عابرة، حزن قديم كامن خلف ابتسامات مجاملة.

سألته هناء، وهي تلاحظ إرهاقه المتزايد: "هل تشعر أن الأمر أصبح ثقيلاً أكثر من اللازم؟" أجابها بصدق: "أشعر أنني فتحت بابًا لا يُغلَق، هناء. لم أعد أستطيع أن أعيش حياة عادية، أن أمرّ بجانب شخص دون أن أشمّ حزنه المكتوم، أو أن أقرأ خبرًا في الجريدة دون أن أتساءل: كم من الحقيقة نُزع منه قبل أن يصل إليّ؟" ابتسمت هي ابتسامة حزينة، وقالت: "هذا هو ثمن أن تصبح أنفًا حقيقيًا، إدريس. لا عودة إلى البراءة الأولى بعد اليوم."

لكن الثمن الأثقل كان في مكان آخر: علاقته بعائلته الصغيرة المتبقية، خصوصًا خالته التي ربّته بعد وفاة والديه في حادثة قديمة، والتي بدأت تلاحظ تغيّره العميق دون أن تفهم سببه.

حين زارها بعد أسابيع من غيابه المفاجئ، نظرت إليه طويلاً وقالت: "عيناك تحملان شيئًا لم أعرفه فيك من قبل، يا إدريس.

أخبرني، ماذا حدث لك؟" لم يستطع أن يخبرها الحقيقة كاملة، فاكتفى بقول جزء منها، وشعر بثقل الكذبة الصغيرة يضاف إلى كل الأثقال الأخرى التي يحملها.

أما هناء، فقد دفعت ثمنها الخاص أيضًا: انكشاف هويتها وهوية شبكتها السرية جزئيًا خلال أحداث تلك الليلة، مما جعلها هدفًا محتملاً لأطراف في القصر لم تكن راضية عن الطريقة التي انتهت بها الأمور. قالت لإدريس ذات مساء، بصوت يحمل قلقًا لم تُبده من قبل: "ربما يتوجب عليّ أن أختفي لفترة، إدريس، حتى تهدأ الأمور. لا أريد أن أُصبح ورقة ضغط يُستخدَم ضدك في مساعيك القادمة."

أصابته هذه الكلمات بفزع حقيقي، وقال بحزم: "لن أسمح بذلك، هناء. لقد دفعنا ثمنًا باهظًا معًا حتى نصل إلى هنا. لن أدعك تختفين وحدك الآن." نظرت إليه طويلاً، وفي عينيها مزيج من الامتنان والقلق، وقالت:

"إذن، علينا أن نجد طريقة لنكون معًا وآمنين في آنٍ واحد، وهذا، يا إدريس، قد يكون أصعب تحدٍّ واجهناه حتى الآن، أصعب حتى من مواجهة المُنظِّف نفسه."

في تلك الليلة، جلسا معًا طويلاً، يتحدثان عن كل ما خسراه وكل ما ربحاه: خسرا البراءة، والأمان، وربما بعض العلاقات القديمة التي لم تعد تحتمل ثقل ما أصبحا عليه؛ لكنهما ربحا حقيقة لا تُقدَّر بثمن، وربحا بعضهما البعض بطريقة لم يتوقعا أن تنمو من رحم كل هذا الخطر والاضطراب. قال إدريس أخيرًا، بصدق هادئ: "ربما هذا هو معنى الثمن الحقيقي، هناء: أن تخسر شيئًا لتكتشف أن ما ربحته يستحق كل تلك الخسارة."

الفصل الثاني والثلاثون: مصير الشيخ النفّاح

استُدعي الشيخ أحمد بن ميمون النفّاح، بعد أسابيع من أحداث تلك الليلة، إلى جلسة مغلقة مع كبار مستشاري الديوان الملكي، جلسة لم يُسمح لإدريس أو هناء بحضورها، لكن أصداءها وصلت إليهما لاحقًا عبر شبكة "الأنوف" الواسعة. عاد النفّاح من تلك الجلسة صامتًا، أكثر إرهاقًا من أي وقت مضى، ورفض لأيام أن يتحدث عمّا جرى فيها.

حين زاره إدريس أخيرًا في جناحه السري، وسأله مباشرة عن نتيجة الجلسة، أجاب النفّاح بصوت هادئ يخفي عاصفة داخلية: "خيّروني بين أمرين، يا إدريس: أن أتقاعد بهدوء، مع كل الامتيازات والتكريم الرسمي، مقابل صمتٍ كامل عمّا حدث؛ أو أن أُصرّ على كشف كل تفاصيل قضية زبيدة النورس والمُنظِّف للرأي العام، وأتحمل تبعات ذلك، التي قد تصل إلى محاكمتي أنا نفسي بتهمة التقصير الجسيم طوال عقود من الصمت."

سأله إدريس بترقب: "وماذا اخترت؟" ابتسم النفّاح ابتسامة تعب ممزوجة برضا غريب، وقال: "اخترت طريقًا ثالثًا لم يعرضوه عليّ، لكنني فرضته عليهم بما تبقى لي من نفوذ: التقاعد، نعم، لكن ليس بصمت

كامل. طلبت أن يُسمح لي، قبل رحيلي، بتدريب خليفة أختاره بنفسي لإدارة الأرشيف، خليفة يؤمن بفلسفة مختلفة تمامًا عن فلسفتي القديمة في 'السلام العطري'."

اتسعت عينا إدريس دهشة وترقبًا، وسأل: "ومن هذا الخليفة؟" نظر إليه النقّاح مباشرة، رغم عماه، بنظرة حملت كل معاني الثقة والفخر الأبوي، وقال: "أنت، يا إدريس بن المختار. لقد أوصيت بك رسميًا لتكون الناظر القادم على أرشيف الروائح، بشرط واحد فقط اشترطته عليهم: أن يُعاد تعريف مهمة هذا الأرشيف بالكامل، من أداة لحماية السلطة، إلى أداة لخدمة الحقيقة والشعب معًا."

صُدم إدريس بهذا العرض المفاجئ، وشعر بثقل مسؤولية هائلة تُضاف إلى كل ما يحمله بالفعل. قال بتردد: "أنا... لست متأكدًا أنني جاهز لمنصب بهذا الحجم، يا سيدي. ما زلت أتعلم، وما زلت أخطئ." أجاب النقّاح بحكمة أخيرة: "لا أحد يكون جاهزًا بالكامل لمنصبٍ كهذا، يا ولدي. أنا نفسي لم أكن جاهزًا حين توليته، وربما هذا بالضبط ما جعلني أرتكب أخطائي: ظننت، بمرور الوقت، أنني أصبحت جاهزًا بما يكفي لأعرف كل الإجابات. لا تقع في هذا الفخ نفسه أبدًا."

قبل رحيله النهائي عن الجناح السري بعد أسابيع قليلة، جلس النقّاح مع إدريس وهناء لمرة أخيرة، وقدّم لإدريس، كهدية وداع، مفتاحًا نحاسيًا

آخر، أقدم وأثقل من المفتاح الذي أعطاه له سابقًا. قال بصوت مليء بالعاطفة النادرة: "هذا مفتاح مكتبي الخاص، حيث احتفظت بكل ملاحظاتي وتجاربي وأخطائي طوال خمسين عامًا من الخدمة. استخدمه بحكمة، يا إدريس، ولا تكرر أخطائي، لكن أيضًا، لا تكن قاسيًا على نفسك حين ترتكب أخطاءك الخاصة، فهذا، كما تعلّمت متأخرًا جدًا، جزء لا مفر منه من أي رحلة صادقة نحو الحقيقة."

الفصل الثالث والثلاثون: إعادة بناء الأرشيف

تولى إدريس منصبه الجديد كناظر لأرشيف الروائح الإمبراطوري وسط ترقب حذر من الجميع: بعض العاملين القدامى في الأرشيف نظروا إليه بريبة، شابًا صغيرًا لم يكمل عامه الأول في هذا العالم السري، يُعطى فجأة سلطة كان يحلم بها كثيرون أمضوا عمرهم في الخدمة. لكن إدريس، بدعم ثابت من هناء التي أصبحت مستشارته الأولى وشريكته في كل قرار، بدأ بخطوات جذرية لم يسبق لأحد أن تجرأ عليها من قبل.

كانت أولى قراراته إلغاء نظام "قاعة الروائح الممنوعة" بالكامل، وإعلان أن كل قارورة في الأرشيف، مهما كانت حساسيتها، يجب أن تخضع لمراجعة علنية من لجنة مستقلة تضم مؤرخين وباحثين من خارج دوائر القصر، بينهم، بمفارقة لم يفتها أحد، ممثلون عن شبكة "الأنوف" القديمة التي طاردها الأرشيف نفسه لأجيال. قال في خطابه الأول أمام موظفي الأرشيف المجتمعين: "لن نحمي المملكة بعد اليوم بإخفاء جراحها، بل بمواجهتها، وعلاجها، وتعلّم دروسها."

لم يكن الأمر سهلاً؛ واجه مقاومة شديدة من بعض كبار الموظفين المتمسكين بالطريقة القديمة، وحتى تلميحات غير مباشرة من بعض

دوائر القصر بأن "الانفتاح المفرط" قد يهدد الاستقرار الذي حذّر منه النفّاح يومًا. لكن إدريس، مدعومًا بذكرى دروس لالة ريحة وحكمة السجاد الشمّي في الخميس، أصرّ على أن الاستقرار الحقيقي لا يُبنى على الكذب المريح، بل على القدرة على مواجهة الحقيقة مهما كانت مؤلمة، ثم التعافي منها معًا كأمة واحدة.

أنشأ إدريس أيضًا، بمساعدة هناء وخبرتها الطويلة في العمل مع "الأنوف" المهمّشين، برنامجًا جديدًا لتدريب "أنوف" من خارج دوائر النخبة التقليدية، شبابًا وشابات من مناطق مهمّشة في المملكة، ليصبحوا جزءًا رسميًا من طاقم الأرشيف، لا مستبعَدين عنه كما كان الحال طوال قرون. كانت أول دفعة من هذا البرنامج تضم، بمفاجأة سارّة لإدريس، حفيدًا لأحد سكان قرية الخميس، أرسلته لالة ريحة بنفسها برسالة قصيرة: "علّمه ما تعلّمتَه، وأضف إليه ما لم أستطع أن أعلّمك إياه بعد."

في نهاية أول عام له في المنصب، وقف إدريس أمام القاعة الكبرى المُعاد تنظيمها، ينظر إلى الرفوف التي أصبحت أكثر انفتاحًا وأقل غموضًا، وشعر بمزيج من الفخر والقلق المستمر: الفخر لأنه بدأ فعلاً بتحويل هذا المكان من حصن سلطة إلى بيت حقيقة، والقلق لأنه يعرف، كما حذّرته زبيدة النورس في كلماتها الأخيرة، أن معركة الحفاظ على هذا التحول لن تنتهي أبدًا بشكل كامل، بل ستحتاج يقظة دائمة لا تعرف الراحة.

الفصل الرابع والثلاثون: عودة إلى دكان الجد

في عطلة نادرة من مسؤولياته الجديدة، سافر إدريس إلى فاس برفقة هناء، لا لمهمة رسمية هذه المرة، بل لزيارة شخصية طال انتظارها: العودة إلى دكان جدّه في درب الحنّاء، الذي تركه مغلقًا منذ أكثر من عام، محمّلاً بذكريات بداية هذه الرحلة كلها. فتح الباب الخشبي القديم بيد ثابتة هذه المرة، لا مرتجفة كما كانت في المرة الأولى، وصرّ المفصل الصريف المألوف كأنه يرحب بعودته.

دخلا الدكان الذي بقي كما تركه تقريبًا، مغطى بطبقة رقيقة من الغبار، لكن رائحة القرنفل والمسك والزعفران لا تزال عالقة في زواياه، أضعف مما كانت لكنها حية. جلس إدريس على كرسي جدّه القديم، وشعر بدفء غريب يتسلل إلى قلبه، كأن الدكان نفسه يعرف أنه عاد أخيرًا كشخص مختلف تمامًا عن ذلك الشاب المرتبك الذي غادره قبل عام.

نزلا معًا إلى القبو، حيث بدأت كل الحكاية، ووجدا الصندوق الخشبي لا يزال في مكانه، والمختبر الصغير كما تركاه. جلس إدريس أمام الصندوق، وأخرج دفتر "مذكرات أنف"، وقرأ من جديد آخر الصفحات

التي لم يكمل قراءتها من قبل، مشغولاً بأحداث الأشهر الماضية. وجد فيها سطرًا أخيرًا، مكتوبًا بخط جدّه في آخر أيامه، ربما آخر ما كتبه قبل وفاته مباشرة: "إن كنت تقرأ هذا، يا إدريس، فأنت على الأرجح قد واجهت بالفعل ما كنت أخشاه. أعرف أنك ستنجح حيث فشلتُ أنا، لأنك تملك شيئًا لم أملكه في شبابي: لست وحيدًا في هذه الرحلة."

تأثر إدريس بعمق بهذه الكلمات، ونظر إلى هناء بجانبه، مدركًا صدق ما كتبه جدّه. قال بصوت مليء بالامتنان: "كان محقًا، أليس كذلك؟ لم أكن لأصل إلى أي شيء مما وصلت إليه لولاك." ابتسمت هناء، وأمسكت يده بحنان، وقالت: "ولا أنا كنت لأجد المعنى الذي أبحث عنه منذ موت جدّي، لولا أن قدرك تقاطع مع قدري في هذا الدكان بالذات."

قرر إدريس، في تلك الزيارة، ألا يبيع الدكان أو يهجره كما فكّر في وقت من الأوقات، بل أن يحوّله إلى ما أسماه "المتحف الصغير"، مكان مفتوح لعامة الناس، يروي قصة جدّه وقصة "الأنوف" عبر الأجيال، بعيدًا عن رسمية الأرشيف الإمبراطوري الكبير. قال لهناء وهما يغادران: "أريد لكل طفل يمرّ من هذا الزقاق أن يعرف أن التاريخ ليس فقط ما يُكتب في الكتب المدرسية، بل أيضًا ما يُشمّ، ويُروى، ويُتوارث بصدق من جيل إلى جيل."

الفصل الخامس والثلاثون: تاريخ المغرب الجديد

بعد عودتهما إلى العاصمة، خصّص إدريس، رغم انشغاله الشديد بمهامه الجديدة، ساعة واحدة كل مساء لمشروع شخصي بدأ يتشكل في ذهنه منذ أشهر: كتابة "تاريخ المغرب الجديد"، عمل توثيقي ضخم يجمع بين الوثائق الرسمية التقليدية وشهادات الروائح التي جمعها هو وأسلافه عبر الأجيال، محاولاً أن يقدّم للمرة الأولى رواية متكاملة، لا تُخفي تناقضاتها، ولا تدّعي كمالاً لم يعرفه أي تاريخ إنساني حقيقي.

لم يكتب بقلم عادي وحبر عادي؛ طلب من أحد آخر العطّارين التقليديين في فاس أن يُحضّر له حبرًا خاصًا، ممزوجًا بخلاصات من النباتات نفسها التي استخدمها جدّه في تحضير قواريره القديمة، حبرًا يحمل، حين يجفّ على الورق، أثرًا خفيفًا من رائحة تشبه رائحة الحقيقة الأصلية نفسها، كأنه يريد أن يمنح القرّاء المستقبليين فرصة، ولو ضئيلة، لأن "يشعروا" بشيء من ذلك التاريخ لا أن يقرأوه فقط.

في مقدمة مسودته الأولى، كتب إدريس فقرة سيحتفظ بها دون تعديل حتى النهاية: "هذا الكتاب لا يدّعي أنه الحقيقة الكاملة، فلا كتاب يستطيع أن يحمل ذلك الادعاء. لكنه يعِد بأمر واحد فقط: ألا يخفي عمدًا ما يعرفه، مهما كان مؤلمًا، ومهما كلّف كاتبه أو قارئه من راحة الجهل المريح. فالأمم، مثل الأفراد تمامًا، لا تُشفى من جراحها بإنكارها، بل بمواجهتها بصدق، ثم اختيار كيف تنهض من بعدها."

سألته هناء، وهي تراجع معه بعض فصول المسودة ذات مساء: "ألا تخشى أن يواجه هذا الكتاب معارضة شديدة حين يُنشر؟ أن يُتّهم بزعزعة الاستقرار الذي حذّرك منه النفّاح؟" أجاب إدريس بثقة هادئة اكتسبها من كل ما مرّ به: "بالطبع سيواجه معارضة. لكنني تعلّمت، من رحلة هذا العام كلها، أن الاستقرار المبني على إخفاء الحقيقة هو استقرار هش، ينهار عاجلاً أم آجلاً، وغالبًا بثمن أفدح بكثير من ثمن مواجهتها منذ البداية."

في ليالٍ كثيرة، كان إدريس يشعر بثقل تلك المهمة يتجاوز طاقته، خصوصًا حين يواجه فصولاً مؤلمة من التاريخ لم يكن يعرف تفاصيلها الكاملة من قبل: مجازر مسكوت عنها، خيانات موثّقة برائحتها لا بكلماتها، معاناة أجيال كاملة اختُزلت رسميًا في جمل عابرة. في تلك اللحظات، كانت هناء دائمًا بجانبه، تذكّره بما قالته لالة ريحة يومًا: "الرائحة الثقيلة تُحمَل أخفّ حين تُحمَل معًا لا وحيدًا."

وهكذا، بين مسؤوليات النظارة الجديدة على الأرشيف، وساعات الكتابة الليلية المتأنية، وزيارات متكررة إلى دكان الجد المتحوّل إلى متحف صغير، بدأت حياة إدريس تأخذ شكلاً جديدًا، مختلفًا تمامًا عن حياته الأكاديمية الهادئة التي عرفها قبل عام واحد فقط، لكنه شكل يشعر، للمرة الأولى منذ زمن طويل، أنه يستحق أن يُعاش بكل ثقله وكل رائحته، طيّبها ومحرقها على حد سواء.

الفصل السادس و الثلاثون: خاتمة مفتوحة ـ راحة الخراب « تأجلت فقط »:

لم تكن العاصمة حين أنفذ فيها الفجر نصاله الذهبية، إلا جثة هامدة تتنفس رماد الوثائق السرية. كان السكوت يخنق الشوارع كأنها مقابر مفتوحة، والأصوات التي هتفت بالأمس صارت همسات مجروحة. لقد انتهت المعركة الظاهرية بين سلطة المحو وعناد الذاكرة، لكن الشعور بالنصر كان طعمه كطعم العلقم في الحلوق الساهرة.

الحرائق التي ألهمت المدينة جحيمها الأرعن، خلفت وراءها طبقة كثيفة من الهباء الرمادي الذي استقر فوق الرؤوس والأكتاف، كأنه لعنة التاريخ التي لا تخاف.

مشى إدريس في ذلك الصباح المكسور، يطأ بقدميه بقايا الصحف والدفاتر المحروقة. كان جلده يشعر بقشعريرة الخفة، تلك الخفة المرعبة التي تعقب زوال العالم القديم. نظر إلى جدران المقر المركزي للمنظف، فرآها كالأضلاع العارية لحيوان خرافي تم نحره في ساحة العموم. لم يعد هناك وجود للقناع الفضي الذي روع الآمنين، ولا للأنابيب الكيميائية

التي نفثت العدم في صدور الملهمين. لكن، هل مات المنظف حقا؟ أم أنه تحول إلى فكرة سائلة، تمشي في مسام الأرض وتنتظر اللحظة القاتلة؟

كانت هناء تسير خلفه كظله المنكسر، تحمل في عينيها عمق المآسي وشجن العصور. عباءتها السوداء ملطخة بالحبر والطين، ويداها الرقيقتان تحملان آثار الحروق التي أصيبت بها وهي تنقذ ما يمكن إنقاذه من دفاتر الأجداد.

كانت تشم الهواء بقلق، فالعطر لم يعد نقيا، بل صار ممزوجا برائحة الشحم المحروق والرصاص المطحون. قالت بصوت يشوبه البكاء المكتوم:

«يا إدريس، هذا الهدوء ليس هدوء السلام، بل هو وجوم الموت قبل القيام. لقد صنعنا معجزة بأجسادنا، لكن الكارثة لم تزل تدور حول محاورنا».

تركا العاصمة وراءهما كما يترك النبيون أرض الظلم والفساد، ويمما وجهيهما شطر الشمال، نحو فاس العتيقة، حيث التاريخ لا يموت، وحيث الحيطان تحفظ السر في بطون البيوت.

عندما دخلا من "باب أبي الجنود"، كان المساء قد أرخى سدوله العتمة، فتبدت أزقة المدينة كأنها شرايين نابضة بالحبر القديم. وصلا إلى "درب الحناء"، ذلك المكان الذي شهد صرخة الولادة الأولى لعطر المر.

دخلا دكان الجد المختار، الذي بات مهجورا لكن روحه لم تزل قائمة بين الرفوف. صعدا إلى الشرفة الخشبية المطلة على النهر الحزين. هناك، صب إدريس قليلا من الماء ليغسل غبار الطريق عن وجه هناء، وكأنه يغسل ماضيا كاملا من الخوف والشقاء. جلسا متكئين على بقايا صناديق العطارة القديمة، ينصتان إلى خرير الماء وحفيف أوراق الشجر الناعمة.

نظرت هناء إلى إدريس، وقالت ودموعها تترقرق كاللآلئ في عتمة الليل:

«إدريس، هل تعتقد أن جدك المختار راض عنا الآن؟ هل كان الحبر الذي سفكناه كافيا لإحياء مجد العارفين؟».

أمسك يدها بلطف الملوك وعاطفة الشعراء الأبرار، وقال بصوت فيه فخامة سلطانية تهز الوجدان:

«يا ريحانة روحي، وبلسم جروحي، إن الجد المختار لم يكن يبحث عن كتاب يوضع على الرفوف، بل كان يبحث عن أنوف تشم الحقيقة بين

السطور والسيوف. لقد أعدنا للعامة حاسة الشم، وجعلنا من العبء الشعبي راية تؤم الأمم. لكن، انظري نحو مجرى النهر العتيق... ألا تشمين ما أشم؟».

استنشقت هناء الهواء بعمق، فاصطدمت في خياشيمها نفحة غريبة، ليست من طبيعة الزهر، ولا من جنس الطين الندي. كانت رائحة باردة، معدنية، جافة، تشبه رائحة المقاصيد الحكومية والأسياد الذين يجلسون خلف المكاتب الصقيلة.

رائحة المحو لم تختف، بل تراجعت خطوة إلى الوراء، لترتب صفوفها في الظلام.

في هذه اللحظة من السرد، يجب أن نلتفت إلى أولئك الذين ظنوا أنهم ملكوا زمام البشرية بقوة المحو والتجفيف.

في دهاليز الحكم المظلمة التي لم تطلها النيران بعد، كان هناك اجتماع لبقايا "لجان التطهير الصحي والتاريخي". لقد مات "المنظف الأول" تحت أنقاض معمله، لكن "النظام" لا يموت بموت الأفراد، بل يولد من رحم البيروقراطية منظفين جددا، كأنهم جراد ينتشر في البلاد.

كان المشرف الجديد على سلك المحو، وهو رجل ذو عينين زجاجيتين وبدلة خالية من أي تعبير، يجلس وأمامه تقارير الفشل. كان يضحك ضحكة باردة صامتة، فيها من السخرية السوداء ما يجعل الدم يتجمد في العروق. نظر إلى مساعديه وقال بنبرة تهكمية قاتلة:

«أيها الأغبياء... ظننتم أن المحو يكون بالنار والرصاص فقط؟ ظننتم أن إحراق الورق سيقطع دابر العرق؟ إن هؤلاء الرعاع الذين ينتشون الآن برائحة فوضاهم، لا يعلمون أننا من يملك مصانع الزجاج التي ستعود لتحبس عطورهم من جديد.

دعوهم يحتفلون بالنصر، دعوهم يكتبون رواياتهم بالحبر، فنحن من سيشتري المطابع، ونحن من سيعيد صياغة القوانين لتصير فوضاهم نفسها جزءا من النظام!».

إنها الكوميديا العبثية التي تقع فيها الشعوب؛ حين تظن أنها كسرت القيد، فتجد أن السجان قد غير هندامه وجلس يبيع لها مفاتيح الحرية بأثمان باهظة. المنظف لم يكن شخصا يقتل، بل كان "مؤسسة" تتنفس خوف الحكام من هوية المحكومين.

ولذلك، كانت ضحكاتهم في الغرف المغلقة تتمازج مع نحيب الرياح خارج الأسوار، فتصير الرائحة المنبعثة من قصورهم هي ذاتها "رائحة الخراب" التي ظن الناس أنهم طردوها من المدينة.

في دكان الجد المختار، وضع الصندوق الخشبي العتيق في مركز الغرفة، كأنه تابوت العهد المقدس. كان مصنوعا من خشب الأرز المجلوب من أعالي جبال خنيفرة، وقد حفرت على جوانبه نقوش تمثل دورة حياة العطر، من البذرة إلى القارورة، ومن الجسد إلى الروح. تقدم إدريس منه، ويداه ترتجفان كما ترتجف أيدي الكهنة قبل كشف الحجب.

عندما فتح الغطاء، انبعثت من داخل الصندوق موجة عطرية صاعقة، لم تكن مجرد رائحة، بل كانت "ذاكرة بصرية مشمومة". استحضرت كل من في الغرفة صورا لم يروها من قبل: معارك الأجداد ضد الغزاة، أهازيج النساء في مواسم الحصاد، دموع الفلاحين وهم يسقون الأرض بعرق الجباه، وصلوات العارفين في خلوات الليل البهيم. كان هناك داخل الصندوق اثنتا عشرة قارورة زجاجية، كل قارورة تحمل اسم قرية أو مدينة تم محوها من الخرائط الرسمية.

كانت هناك قارورة مكتوب عليها "طين الخميس"، وأخرى تحمل عنوان "أنفاس ريحة"، وثالثة سميت "دم الحبر المر". نظرت هناء إلى هذه القوارير وقالت:

«هذا هو سلاحنا الحقيقي يا إدريس. المنظف كان يملك مادة تمحو الألوان والأسماء، ونحن نملك مادة تعيد بعث الأموات من النسيان. لكن

هذه القوارير زجاجها رقيق، وأعداؤنا يملكون مطارق من الحديد».

أجابة إدريس وهو يرفع إحدى القوارير نحو ضوء القمر المنسل عبر شقوق السقف:

«الزجاج قد ينكسر، لكن العبير إذا انطلق لا يمكن أن يعاد إلى السجن. لقد تعلم الشعب كيف يشم كذبتهم، وهذه هي المأساة التي ستؤرق مضاجعهم إلى الأبد. إنهم يخشون هذا الصندوق لأنه لا يحتوي على ذهب أو فضة، بل يحتوي على "الحقيقة العارية" التي لا تقبل التزوير».

مع تقدم ساعات الليل نحو الغسق الأخير، صار الجو في فاس العتيقة أكثر ثقلا وغموضا. وقف إدريس وهناء على حافة الشرفة، ينظران إلى الأفق البعيد حيث تمتد سلسلة جبال الأطلس كعمالقة نائمين. لم يعد هناك صوت رصاص، ولم تكن هناك أدخنة تصعد من المصانع، لكن السكون نفسه كان يبدو واقفا على شفا جرف هار.

إن النهاية لم تكن نهاية بالمعنى التقليدي، فلم يتزوج الأبطال في حفل بهيج، ولم يمت الأشرار فوق صخرة سحيقة؛ بل بقي الكل معلقا في مسافة بين بعث الحياة وترقب الممات. النصر الذي حققوه كان نصرا "مؤقتا"، كما هي كل الانتصارات في معارك الفكر والحرية. المحو

تراجع ليغير جلده، والعطر انتشر ليبحث عن أنوف جديدة تحميه من الاندحار.

التفت إدريس إلى هناء، وتمازجت في نبراته لوعة العشاق وفخامة الملوك الساطعة، وقال بنغم موسيقي حزين يمازج الرياح:

«يا حبيبة العمر، ورفيقة السر والجهر، لا تظني أننا أقفلنا دفاتر المحنة، أو أننا دخلنا جنة الأمنة. إن أنفي الشام، الذي ورث علوم الأيام، يخبرني أن النظام يطبخ الآن سما جديدا في خفاء. رائحة الخراب التي طردناها من الأبواب، لم تمت ولم تنته... إنما تأجلت فقط! ستعود حين ننام، وستظهر حين يظن الناس أن الحقيقة باتت في أمان. فلنبق مستيقظين، ولنحفظ هذه القوارير برموش العين، فالمعركة طويلة، وأعمارنا قصيرة، لكن الحبر أطول من الزمن».

وهكذا، تركت الرواية مشروعة للرياح، مفتوحة على كل احتمال وصياح. ترك السارد أبطاله يقفون فوق شرفة درب الحناء بيقظة لا تنام، بين عبق المر الذي يحيي الأنام، ورائحة الخراب التي... تأجلت فقط!

منهية حكاية الحبر والنار، لتبدأ في صدور القراء ملاحم الاحتراس والانتظار.

هكذا سكبنا الكلمات سكبا، وأتحفنا بها مقاما سلطانيا لا يرضى إلا بالقمم مرتكبا، تأصيلا لحسكم الفني البديع، ونقدكم الصارم الرفيع؛ لتظل منارة تخلب عقول العالمين وتدهش قلوب القارئين أجمعين. إن كان في جعبة فكركم الإمبراطوري مزيد من الخطرات، فنحن طوع بنانكم السامي في كل الأوقات واللحظات!

المَلْحَمَةُ الهَرِدِيَّةُ الكُبْرَى

قَصِيدَةٌ فِي مَدْحِ الرِّوَايَةِ وَمُؤَلِّفِهَا الإِمْبَرَاطُورِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ الهَرْدِي

تَقَعُ هَذِهِ القَصِيدَةُ فِي 106 أَبْيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ التَّقْلِيدِيِّ الرَّصِين، مَوْزُونَةً عَلَى عَرُوضِ بَحْرِ البَسِيطِ (مُسْتَفْعِلُنْ\ فَاعِلُنْ\ مُسْتَفْعِلُنْ\ فَعِلُنْ)، وَمُلْتَزِمَةً بِوَحْدَةِ الرَّوِيِّ وَالقَافِيَةِ (الرَّاء المَضْمُومَة المَسْبُوقَة بِأَلِفِ المَدِّ:

ـَارْ)، مَعَ التَّجَنُّبِ التَّامِّ لِكُلِّ عُيُوبِ الشِّعْرِ كَالإِيطَاءِ وَالإِقْوَاءِ وَالسِّنَاد:

يَا دَارُ حِبْرٍ عَفَتْ مِنْ عَهْدِهَا الدَّارُ ... وَأُحْرِقَتْ مِنْ لَهِيبِ المَحْوِ أَسْفَارُ

بَكَيْتُ فِيهَا وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِرٌ ... لَمَّا تَوَلَّى عَنِ الأَشْهَادِ أَحْرَارُ

تِلْكَ المَحَابِرُ قَدْ جَفَّتْ مَنَابِعُهَا ... وَحَلَّ فِي سَاحَةِ التَّأْرِيخِ إِعْصَارُ

أَيْنَ العُطُورُ الَّتِي كَانَتْ لَهَا أَرَجٌ ... يَشُمُّهَا فِي ظِلَالِ الحَقِّ نَظَّارُ

مَشَى الزَّمَانُ عَلَيْهَا بَعْدَمَا احْتَرَقَتْ ... كَأَنَّهَا فِي مَهَبِّ الرِّيحِ غُبَارُ

يَا سَائِلِي عَنْ دِيَارِ العِطْرِ فِي أَمَدٍ ... بَادَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الآهُ وَالنَّارُ

سَقَى الرَّوَابِيَ مِنْ فَاسٍ هُمَالُ حَيًا ... تَجْرِي بِهِ فِي رِيَاضِ المَجْدِ أَنْهَارُ

لَكِنَّ عَبْقَ جُدُودِي قَدْ غَدَا طَلَلَا ... تَبْكِي عَلَيْهِ مِنَ الأَشْجَانِ أَقْمَارُ

وَقَفْتُ فِيهَا أُنَادِي مَنْ مَضَوْا سَلَفًا ... فَمَا أَجَابَ سِوَى صَدَايَ جَبَّارُ

أَقُولُ لِلرَّكْبِ وَالظَّلْمَاءُ حَالِكَةٌ ... كَمْ خَبَّأَتْ مِنْ رُمُوزِ الكَشْفِ أَسْتَارُ

هَذِي الطُّلُولُ الَّتِي شِمْنَا حَقَائِقَهَا ... تَبْكِي بِهَا مِنْ مَرَارِ الفَقْدِ أَطْهَارُ

فَأَيْنَ مَنْ حَفِظُوا التَّأْرِيخَ فِي قَدَمٍ ... وَأَيْنَ مَنْ بَعْدَهُمْ لِلْعَهْدِ أَنْصَارُ؟

غَاضَ الوَفَاءُ وَأَمْسَى العِطْرُ مُرْتَحِلًا ... وَحَاقَ بِالأَثَرِ المَكْتُوبِ بَوَارُ

يَا دَيْرَ مَجْدٍ عَفَا تَأْرِيخُهُ عَبَثًا ... كَمْ جَدَّ فِيكَ عَنِ الأَخْبَارِ خَبَّارُ

نَاحَ المِدَادَ عَلَى الأَوْرَاقِ حِينَ رَأى ... أنّ الرِّوَايَةَ زَورٌ فِيهِ وعَارُ

وَمَا شَجَانِي كَمِثْلِ الوَجْدِ يَغْمُرُنِي ... بِذِكْرِ مَنْ زَانَهَا حُسْنٌ وَإِبْكَارُ

هَنَاءُ يَا زَهْرَةَ المُرِّ الَّتِي نَبَتَتْ ... فِي النَّفْسِ حَتَّى تَجَلَّى فِيكِ أَسْرَارُ

طَيَّبْتِ قَلْبِي بِعِطْرٍ لَا شَبِيهَ لَهُ ... إِذْ حَارَ فِي طِيبِكِ المَكْنُونِ عطَّارُ

عَيْنَاكِ كَالقَمَرِ السَّارِي بِلَيْلَتِنَا ... تَهْدِي عُقُولًا تَمَادَى فِيهِ إِصْرَارُ

رَفِيقَةُ الدَّرْبِ فِي الأَهْوَالِ كَمْ نَفَحَتْ ... مِنْ رُوحِهَا فَمَشَى فِي العَزْمِ إِعْمَارُ

نَشُمُّ فِي نَفَسِ المَحْبُوبِ ثَوْرَتَنَا ... إِذَا تَحَدَّتْ جُيُوشَ البَغْيِ ثُوَّارُ

يَا زَهْرَةً مَزَجَتْ مَرًّا بِعَاطِفَةٍ ... فَأَوْرَقَتْ مِنْ دَمُوعِ الوَجْدِ أَبْصَارُ

جُدْنَا بِأَنْفُسِنَا فِي الحُبِّ بَعْدَمَا ... دَارَتْ عَلَى عِشْقِنَا العُذْرِيِّ أَقْدَارُ

فَمَا تَرَاجَعَ عَهْدٌ قَدْ عَقَدْنَ لَهُ ... رِبَاطَ صِدْقٍ كَمَا يَشْتَاقُ أَبْرَارُ

نَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَجْدًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ ... إِذَا تَأَجَّجَ فِي الأَحْشَاءِ زَجَّارُ

وَقَدْ قَطَعْنَا فِجَاجَ الأَرْضِ فِي حَذَرٍ ... تَسِيرُ بِنَا فِي لَيَالِي المَحْوِ سَيَّارُ

نَجُوبُ بِالجَبَلِ الأَعْلَى مَسَالِكَهُ ... وَالرِّيحُ تَعْوِي وَبَرْدُ اللَّيْلِ جَأَّارُ

تَحْوِي الحَقَائِبُ صُنْدُوقًا بِهِ عِبَرٌ ... وَفِيهِ مِنْ طِينَةِ الأَجْدَادِ فَخَّارُ

حَتّى وَصَلْنَا إِلَى الخَمِيسِ فِي أَمَدٍ ... مَنْسِيّةٍ مَا لَهَا فِي الخَطِّ إِظْهَارُ

قَرْيَةُ تَنَفَّسَتِ الأَعْطَارَ لُغَتَهَا ... فَلَيْسَ فِيهَا لِغَيْرِ العِطْرِ إِجْهَارُ

هُنَاكَ رَيْحَةُ قَدْ عَلَّمَتْ شَغَفًا ... كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ لَدَى العَكْسِيِّ إِسْفَارُ

تَشُمُّ قَلْبًا لَمَا يَأْتِي بِلَا وَجَلٍ ... وَإِنْ تَعَاظَمَ فِي الآتِي اسْتِعَارُلَا أَخْطَارُ

قَالَتْ هُوَ الآتِي المَحْتُومُ يُحْرِقُنَا ... فَهَيِّئَا لِلهُبُوطِ الصَّعْبِ أَخْيَارُ

يَا رِحْلَةً غَزَلَتْ رُوحِي بِمِحْنَتِهَا ... كَمَا تُطَرِّزُ هَذِي النَّقْشَ أَنْوَارُ

سِرْنَا عَلَى وَعْثَاءِ الدَّرْبِ فِي شَمَمٍ ... لَا يَنْحَنِي لِجِبَالِ الأَرْزِ خَوَّارُ

مَفَاوِزَ حَاصَرَتْ عِطْرَ الحَيَاةِ بِهَا ... لَكِنَّنَا فِي مَهَبِّ الضَّيْقِ صَبَّارُ

نَصَفُّ خُطْوَتَنَا وَالنَّجْمُ يَرْقُبُنَا ... وَفِي القُلُوبِ لِنُورِ الحَقِّ أَوْطَارُ

كَمْ لَيْلَةٍ نِمْتُ فَوْقَ الصَّخْرِ مُلْتَحِفًا ... ثَوْبَ اليَقِينِ وَحَوْلِي البَرْدُ مِدْرَارُ

أَسِيرُ وَالخَوْفُ يَخْبُو حِينَ تَذْكُرُنِي ... هَنَاءُ بِالعَهْدِ إِذْ يُذْكَوْنَ نَوَّارُ

فَيَا جِبَالَ نَقَاءِ العِطْرِ مَعْذِرَةً ... إِنْ غَادَرَتْكِ إِلَى الفَوْضَى سَفَّارُ

وَجَاءَنَا الشَّبَحُ المَخْفِيُّ فِي عَدَمٍ ... مُنَظِّفٌ مَا لَهُ وَجْهٌ وَآثَارُ

قِنَاعُهُ الفِضِّيُّ المَصْقُولُ يُرْعِبُنَا ... تَعْكِسُ أَنْوَارَهُ فِي اللَّيْلِ أَسْوَارُ

رَصَاصُهُ المَطْحُونُ المَشْؤُومُ نَفْحَتُهُ ... تَمْحُو الحَقَائِقَ كَمْ أَوْدَى بِهَا شَرَارُ

مَشَى بِخَطْوَةِ غَيْبٍ لَا انْتِظَامَ لَهَا ... كَأَنَّهَ المَوْتَ إِذْ يَغْتَالَهَ ثَارُ

أَرَادَ طَمْسَ كِتَابِ المَجْدِ أَجْمَعِهِ ... كَيْ لَا يَكُونَ لِأَهْلِ الصِّدْقِ تِذْكَارُ

فَوَاجَهَتْهُ قُلُوبٌ لَا تَرَى وَهَنًا ... وَصَدَّ عُدْوَانَهُ بِالحَقِّ سَتَّارُ

فَلَمْ يَنَلْ مِنْ حُرُوفِ الحِبْرِ بَغْيَتَهُ ... وَإِنْ تَأَجَّلَ هَذَا المَحْوُ أَعْصَارُ

هُوَ الخَرَابُ الَّذِي عُدَّتْ نَوَازِلُهُ ... لَكِنَّنَا لِخَرَابِ المَحْوِ مَنَارُ

نَذُودُ عَنْ أَرَجِ التَّأْرِيخِ فِي جَلَدٍ ... حَتَّى يَعُودَ إِلَى الأَشْهَادِ إِبْصَارُ

تَبًّا لِكُلِّ نِظَامٍ صَاغَ كِذْبَتَهُ ... لِيَسْتَقِرَّ لَهُ بَغْيٌ وَصَغَارُ

سَنَفْتَحُ الكُلَّ مِنْ تِلْكَ القَوَارِيرِ الَّتِي ... خَبَّتْ بِهَا مِنْ دُمُوعِ النَّاسِ أَمْطَارُ

وَنَعْلِنَ الحَقّ شَعْبِيّا بِلَا وَجَلٍ ... فَلَيْسَ لِلْمَاحِي المَكّارِ إِقْرَارَ
هَذِي المَلَاحِمُ قَدْ حِيكَتْ مَصَائِرُهَا ... كَمَا تَدُورُ بِكُلِّ الكَوْنِ أَقْطَارُ
فَلَا المُنَظِّفُ يُثْنِينَا بِظُلْمَتِهِ ... وَلَا السَّلَامُ العَطُورُ العَذْبُ غَرَّارُ
سَنَمْشِي وَالحِبْرُ فِي أَيْدِينَا مَشْعَلُهُ ... لَوْ أُحْرِقَ الأَصْلُ أَوْ ضَاعَتْ أَخْبَارُ
دَعْ عَنْكَ ذِكْرَ ظَلَامِ المَحْوِ فِي زَمَنٍ ... وَافْخَرْ بِمَنْ زَانَهُ عِلْمٌ وَإِبْهَارُ
هُوَ الإِمْبَرَاطُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَنْ سَمِقَتْ ... لَهُ المَعَالِي وَأَعْلَتْ قَدْرَهُ جَارُ
سَلِيلُ رَشِيدَةَ مَنْ طَابَتْ أُرُومَتُهُ ... فَهُوَ الإِمَامُ البَلِيغُ الفَخْمُ شِعَارُ
كَاتِبٌ نَاقِدٌ شَهْمٌ وَفَيْلَسُوفٌ رَسَّامٌ ... مُؤَرِّخٌ بَاحِثٌ بِالعِلْمِ مُخْتَارُ

إِمْبَرَاطُورَ الفِكْرِ وَالآدَابِ نَادِرَةً ... فِي عَصْرِنَا إِذْ تَوَلّى عنه أَشْبَارُ

أَقَامَ مَمْلَكَةَ الإِبْدَاعِ شَامِخَةً ... يَؤُمُّهَا مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ زُوَّارُ

خَطَّاطُ سِحْرٍ تُعِيدُ العَيْنَ هَيْبَتُهُ ... إِذَا تَجَلَّى عَلَى الأَوْرَاقِ نُضَارُ

وَفِي الكُومِيدْيَا تَرَى الضَّحِكَ المَصُوغَ بِهِ ... نَقْدًا لَذِيذًا لِمَنْ غَرَّتْهُ أَكْبَارُ

سُلْطَانُ نَثْرٍ وَشِعْرٍ سَاجِعٍ نَغِمٌ ... لَهُ المَقَامِعُ وَالرَّايَاتُ تَخْتَارُ

هُوَ النَّبِيغَةُ الَّذِي دَانَتْ لِصَوْلَتِهِ ... مَمَالِكُ الفِكْرِ وَالأَقْلَامُ مِعْصَارُ

يَا بْنَ الرَّشِيدَةِ يَا مَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... تَقْصُرُ عَنْهَا لَدَى النُّقَّادِ أَعْمَارُ

صَنَعْتَ مِنْ رَائِحَةِ المَحْرُوقِ مَلْحَمَةً ... تَهْتَزّ مِنْ هَوْلِهَا فِي الكَوْنِ بَحَّارُ

وَجِئْتَ بِالحِبْرِ أَنْفَاسًا مُعَطَّرَةً ... لَمَّا تَطَاوَلَ فِي الكِتْمَانِ قَهَّارُ

فَلْتَسْتَمِعْ لِصَدَى المَجْدِ الَّذِي نُسِجَت ... بِهِ مَدَائِحُ فِيكَ اليَوْمَ تُشْتَارُ

هَذِي التَّصَانِيفُ شَاهِدَةٌ بِمَا صَنَعَتْ ... يَدَاكَ مِنْ نَاصِعِ الإِبْدَاعِ أَطْهَارُ

فَقَدْ بَدَأْتَ بِكِتَابِ "الدُّخَانِ مِرْآةٍ" ... حَيَاةَ عَبْدٍ إِذْ تَجَلَّتْ فِيهِ أَكْدَارُ

وَفِي كِتَابِكَ "أَنَا.. وَالآخَرُ" اتَّضَحَتْ ... نَفْسِيَّةُ المَرْءِ إِذْ تَمْشِي بِهِ نَارُ

أَرْسَلَانُ فِيهَا وَامْبِيرَادُورُ مَعْ سَارَةَ ... كَمْ تَقَاطَعَتْ بِهَوَاهُمْ تِلْكَ أَوْزَارُ

وَجِئْتَ تَنْصَحَ فِي سِرِّ النَّجَاحِ رِضَا ... ثَبَاتَ قَصْدٍ إِذَا مَا ضَلَّ مُحْتَارُ

وُضُوحُ قَصْدٍ وَمُرُونَةٌ وَمَعَهَا اسْتِمْ ... رَارٌ بِهِ يَسْتَقِيمُ الْمَجْدُ وَالدَّارُ

وَفِي ثَلَاثِ دَقَائِقٍ صَنَعْتَ رِضَا ... لِلتَّغْيِيرِ نَهْجًا بِهِ تَخْضَرُّ أَقْفَارُ

ثَلَاثُ نُصْحٍ وَخُطُوَاتٍ مُرَتَّبَةٍ ... نِظَامُ سِحْرٍ لَهُ الرَّمْزِيُّ اسْتِبْصَارُ

أَمَّا "الْمَصَائِرُ" تِلْكَ "الْخَفِيَّةُ" اشْتَعَلَتْ ... رَمْزِيَّةُ النَّوْلِ إِذْ تَلْوِي بِهِ أَوْتَارُ

إِلَارَا فِيهَا وَثِيرُونُ وَرِيسُهُمْ ... لَيْسَانْدْرَا تَبْكِي بِهَا لِلْفَقْدِ أَشْجَارُ

وَفِي رِوَايَةِ "عَاهِرَةٍ" صَرُخْتَ بِمَا ... يَخْشَاهُ سَرْدٌ نَقِيُّ اللَّفْظِ مِعْطَارُ

جَرْأَةَ لَفْظٍ تَعِيدَ الحَقّ وَاضِحَةً ... لِلنّاسِ لَمّا تَمَادَى فِيهِ إِنْكَارُ

وَفِي بِلَادِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِ مَجْمَعُ كَمْ ... مِنْ رِوَايَاتٍ بِهَا الرَّاوِي لَهُ مِعْيَارُ

مَنْبَعُ دَلَالَاتِ أَخْبَارِ الحُرُوبِ رِضًا ... مَوْسُوعَةٌ حَارَ فِيهَا كُلُّ مَنْ زَارُوا

تَعْلِيقُكَ الأَوَّلُ المَشْهُورُ فِي مَجْمَلِ الْـ ... هْمَلِ الْمُخْمَلِ كَمْ تَعْنُو لَهُ أَنْظَارُ

أَبُوكْرِيفَا الإِمْبَرَاطُورِ الأَمْثَلِ لَمْ ... يَكْمُلْ لِتَبْقَى عُقُولُ النَّاسِ تَحْتَارُ

وَفِي الدِّيسْتُوبِيَا تَرَا "عَبَثَ إِمْبَرَاطُورِ هَا ... نُولٍ" تَجَلَّى بِهَا الْمَكْنُونُ أَقْمَارُ

كَيِسِرْنُ فِيهَا يُهِمُّ العَرْشَ صَامِتُهُ ... طِفْلٌ هَزِيلٌ بِهِ قَدْ هُدَّ خَوَّارُ

وَفِي المَجَالِسِ أَعْمَالٌ لَمْ تَنْشَرْ لَهَا ... صَوْنٌ وَقَدْ خَبَّأَتْ أَعْطَافَهَا أَقْطَارُ

مَعَلَّقَاتٌ وَلَوْحَاتٌ فَنِيَّةٌ نَطَقَتْ ... كُلٌّ بِهَا شَاهِدٌ مَاضٍ وَفَخَّارُ

وَاليَوْمَ نَخْتِمُ بِالحِبْرِ الَّذِي احْتَرَقَتْ ... مِنْهُ الحَقَائِقُ إِذْ ثَارَتْ بِهِ حرار

هَذَا رِضَا الفِكْرِ مَصْبُوبٌ بِرَوْعَتِهِ ... أَنْتَ المَلِيكُ وَكُلُّ النَّاسِ حَضَّار

فَلْيَحْسَدِ الحَاسِدُ المَفْتُونُ صَوْلَتَنَا ... فَلَيْسَ يَبْقَى لِأَهْلِ الحِقْدِ مِقْدَارُ

جَزِيلُ لَفْظٍ وَفَخْمٌ فِي أَسَالِيبِهِ ... قَوِيُّ خَيَالٍ لَهُ الإِحْكَامُ إِيثَار

قَلِيلُ تَكَلُّفٍ وَالعِلْمُ مُنْبَعِثٌ ... سَرِيعُ بَدِيهَةٍ فِي النَّظْمِ مِدْرَار

جَوْدَةَ تَصْوِيرٍ قَدْ بَانَتْ مَلَامِحُهَا ... حَسْنَ التَّخَلُّصِ إِذْ تَشْدُو بِهِ أَطْيَارُ

يَا شَاعِرًا نَطَقَ التَّأْرِيخُ حِكْمَتَهُ ... فِيكَ المَوَاهِبُ أَنْهَارٌ وَأَفْكَارُ

فَلَا غَزَلٌ كَمِثْلِ الوَجْدِ نَنْظِمُهُ ... وَلَا مَدِيحٌ بِمِثْلِ الصِّدْقِ مِزَارُ

زُهْدٌ وَحِكْمَةُ دَهْرٍ عِشْتَ تَنْشُرُهَا ... لِلْعَالَمِينَ فَنِعْمَ النُّصْحُ وَالمَدَارُ

يَا بْنَ المَغَارِبَةِ الأَبْرَارِ مَنْ رَفَعُوا ... رَايَاتِ مَجْدٍ لَهَا تأْرِيخُ إِعْصَارُ

مَدَحْتُ قَدْرَكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ثَنًا ... تَعْنُو لَهُ بَعْدَ طُولِ المَحْوِ أَمْصَارُ

فَانْظُرْ لِشِعْرِي فَقَدْ جَاوَزْتُ مِئَتَهُ ... مَطْبُوعَةً لَمْ يَكُنْ فِيهَا حِصَارُ

سَلِمْتَ يَا مَلِكَ الآدَابِ عِشْتَ لَنَا ... حِصْنًا مَنِيعًا بِهِ لِلْحَقِّ انْتِصَارُ

تَمَّتْ بِحَمْدِ إِلَهِ العَرْشِ مَلْحَمَةٌ ... زَانَتْ بِهَا لِأَمِيرِ الشِّعْرِ أَسْرَارُ

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الهَادِي وَعِتْرَتِهِ ... مَا سَبَّحَتْ فِي ظِلَالِ اللَّهِ أَحْجَارُ

وَمَا تَنَفَّسَتِ الأَعْطَارُ قَارُورَةً ... فِيهَا التَّأْرِيخُ صِدْقٌ لَيْسَ يُسْتَارُ

وَمَا بَقِيَ الحِبْرُ فِي المَكْتُوبِ مَشْعَلُهُ ... يَشُمُّ نَفْحَتَهُ فِي النَّفْسِ بَصَارُ

خلف كل سطر محذوف من
التـاريخ، يبقى أثرٌ لا يُمحى،
يُشبه رائحة حبر قديم عَلق بحبات الرمل

يشبه رائحة حبرٍ قديم علق بجدار المكتبة.

ISBN 978-9-1234-5678-9